مـــاذا

تخفي الأسماك؟

مـــاذا

تخفي الأسماك؟

«روايـة»

ريم منصور سلطان

آفاق
AAFAQ
للنشر

آفاق للنشر 2019م

ماذا تخفي الأسماك؟ «رواية» / ريم منصور سلطان

مصممة الغلاف: عبير منصور سلطان

الطبعة الأولى: 1441هـ – 2019م

208ص؛ 14×21سم

ردمك: 978-1-78752-235-0

جميع الحقوق محفوظة للناشر

Tel.:+965 22256147 – Fax: +965 22256142

P.O.Box: 20585 Safat – Postal Code: 13066 Kuwait

info@aafaq.com.Kw

www.aafaq.com.Kw

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ « فوتوكوبي » أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي آفاق للنشر

إهداء

إلـى الأصوات التي غابت عن هذه الحيـاة، وأظلم العالم من بعدهم.

إلـى والدتـي أبقاها الله لي سـندًا وذخـرًا وصبـرًا عليَّ في هذه الحيـاة.

ريم سلطان

الفصل الأول..

..لا تقتل

لم يكن هذا اليوم إلا يوم نحس وتشتت على المملكة. فقد استيقظت المدينة على صراخِ إحدى الخادمات يصدر من مخدع الملك، وما إن دخل حرسٌ قاعة العرش حتى أصيبوا بصدمة...

الخادمة تغطيها الدماء.. فقد ظهرت تعابير وجه الملك المخيفة، والخنجر الذي تُرك مغروزًا في صدره. وبقع الدم كانت في كل مكان في الغرفة، حتى إنها وصلت إلى السقف.

كانت عيناه زائغتين.. ماذا نفعل..؟

التفت الحارس إلى صديقة الآخر، وقال وفي صوته الارتباك واضحًا:

- ماذا نفعل الآن؟!
- لا أعلم...
- يجب أن نخبر المستشار.
- نعم نعم لقد نسيت أمر المستشار.
- اذهب أنت، وأنا سوف أحرس المكان، أسرع...

قالها وبصوت أقرب إلى الصراخ، ودفعه دفعًا نحو الخارج، وكان يحاول أن يغلق الأبواب.

حاول الحراس السيطرة على الموقف، ولكن لحظِهِ العاثر.. فقد بدأ الناس بالتجمع محاولين النظر إلى مخدع الملك.

كان الحارس يحاول إبعادهم، ولكن ما إن وصل الحراس الآخرين حتى كان بعضهم قد رأى ما في داخل الغرفة، وشاهدوا الملك لا يتحرك، فبدأ الأطفال يبكون، والنساء يصدرن العويل. والرجال يصرخون ويحاولون أن يسيطروا على أنفسهم، ويهمسون لبعضهم؛ ويقولون: الملك لا يتحرك.

عندها بدأ الهرج وأصيب الجمع بحالة من الذهول والخوف، وأصبح كلٌّ منهم يجري لا يعلم إلى أين.. وعمّت الفوضى المكان.. لم يستطع أحد السيطرة على الحشد الذي بدأ يزداد إلى أن صرخ أحد من الحشود:

- أين القادة؟ وأين المستشار؟ يا الله... ماذا نفعل الآن؟

أسرع الحارس إلى المستشار ليعلمه بالخبر. كان يطرق الباب بانفعال شديد كأنه يريد أن يكسره، وعندما فُتح الباب أخيرًا.. وجد نفسه وجهًا لوجه مع المستشار، ذاك الرجل الذي طالما سانده، هو رجل متوسط الطول، وسيم الملامح، هادئ الطبع حليم، كثير التعاطف، تجاوز الأربعين، يلجأ إليه الجميع ليحل لهم مشاكلهم، يحب المزاح والضحك على الرغم من بداية ظهور الشيب في مقدمة رأسه ما زاد في جاذبيته، رياضي من الدرجة الأولى، مثقف يعرف ما يريد، رومنسي لدرجة الجنون، ومثالي لأبعد حد.. وهو مع كل ذلك ليس طموحًا.

- المستشار: ماذا هناك؟
- الحارس (بارتباك): أستسمحك يا سيدي في أن تأتي معنا.

أطبقت الحيرة على المستشار، فليس من عادة الحراس أن يأتوا إليه في هذا الوقت، ولا أن يطرقوا الباب بهذه الطريقة. وما إن رآه حتى شعر المستشار بغرابة تصرف الحارس الشاب فقد كان يتصبب عرقًا ويرتعش ويحاول الكلام، ولكن لا يعلم ماذا يقول، نظراته زائغة، وعيناه غائرتان حمراوان.

- المستشار (وهو يصرخ): ماذا هناك؟ وكيف لك أن تطرق الباب بهذه الطريقة؟

كان المستشار على استعداد لأن يسهب في تأديب الحارس ليعلمه آداب وقواعد الدخول على الأعلى منه مقامًا ورتبة، لكن الحارس بادره بصوت مرتبك:

- الحارس: الملك لا يتحرك، وحوله الدماء في كل مكان يا سيدي، وأظن أنه لن يستطيع الحركة مرة أخرى؛ فهو شبه ممزق.

ألجمت المفاجأةُ المستشارَ، وقال وهو مشتت التفكير:

- المستشار: هيا بنا...

أغلق الباب من دون أن ينتبه أنه لم ينتعل حذاءه.. كانت الدموع تتساقط دون إرادة منه.. كان يشعر كأن أحدًا طعنه في صميم قلبه.. تقلّص أسفل معدته.. سرت في جسده قشعريرة من البرد شعر به

فجأة.. تشتت ذهنه وكأنه في حلم.. لم يصدق ما يحصل.. كيف لقائدنا أن لا يتحرك؟؟!.. ما تلك القوة التي استطاعت أن تهزم قائدنا؟؟!.. فنحن لم نشهد مثل هذا الأمر في عالمنا.. أيعقل أنه لا يتحرك..؟؟ أسئلة تعصف به لم يكن لها أي إجابة.

عندما وصل إلى القبة، باشر العمل، اقترب من مكان الملك يحاول أن يحركه.. ولكنه لم يتحرك.. صرخ في وجهه ثم اقترب أكثر، وباشر بقراءة الكتاب فلعلها الطريقة المناسبة لإيقاظه.. ولكن دون جدوى.. التفت إلى الحارسين اللذين كانا يقفان، ولا يعلمان ماذا يفعلان، وما سوف يحصل لهما، فقد توقف الملك عن الحراك في وقت مناوبتهما على الحراسة فهما لا محالة سوف يعاقبان عقابًا عسيرًا.

- المستشار: ألم تسمعا أي شيء يحدث في الداخل؟؟
- الحارس الأول: لا يا سيدي فلم يصدر أي صوت من الداخل.
- المستشار: ومن وجد الملك على هذه الحالة؟.
- الحارس الثاني: إنها إحدى العاملات، سوف تجدها في مكتب الملك أجلسناها هناك لأنها كانت مرتعبة ترتجف مضجرة بالدماء فقد حاولنا تهدئتها، ولكن دون جدوى لذا وضعناها في المكتب حتى تهدأ خصوصًا أنها كانت تتكلم بصوت عالٍ، وحركاتها وكأنها فقدت عقلها..

أصدر المستشار أمرًا باعتقال الحارسين، صرخ أحد الحراس وقال:

- الحارس: ولكن يا سيدي وما ذنبنا؛ لم نفعل شيء؟
- المستشار: ان ذنبكم أنكم لم تنتبهوا للملك جيدًا أيُّها الحمقى، ولا أعلم إلى الآن؛ هل أنتم من قتل الملك أم أنتم متآمرون مع القاتل؟ لا يوجد دليل يثبت براءتكم.

صاح أحد الحاضرين:

- يجب أن يشنقوا على فعلتهم.
- المستشار: انتظرا لا يوجد دليل أنهم هم من فعلوا هذا الأمر.

قال أحد الحضور بحقد، وبعد أن تجمع الناس حول الحراس يريد كل منهم أن يمزقه:

- ألم تسمع الملك؟
- لا...
- وكيف ذلك؟ ولا يفصلكم سوى باب خشبي، أتعدنا حمقى أيُّها القاتل المافون؟
- انتظرا لم أقتل أحد، وأقسم على ذلك، لا أنا ولا زميلي سمعنا صوت الملك.

قال أحد الحضور:

- أمركم محسوم، فلماذا تصرون على الكذب؟!

نظر إليه صديقه وهو يراه في استسلام تام لمصيره.

- أرجوك تكلم، لماذا سكتَّ لن تسكت، سوف يفسرونه على أننا فعلًا القتلة دافع عن نفسك.

نظر إليه زميله أخيرًا وقال:

- لا فائدة من الكلام معهم ألا ترى فقد قرروا مصيرنا فعلًا إنهم أدانونا وانتهوا. عندها قال المستشار:
- سوف نقيم العدل، ونظهر من القاتل؟ وأنا لن أرتاح إلا عندما أحقق العدالة.

سيقَ الحارسان إلى الخارج، وذهب المستشار إلى مكتب الملك حيث تجلس الفتاة..

عندما شاهدها وجدها فتاة في الثانية عشر من العمر، بشرتها سمراء كسنابل القمح، وخداها أحمران مثل الشفق، وحاجباها مقطبان، وعيناها فيهما شيء لم يفهمه، لم يستطع وضع يده على الأمر..

اقترب المستشار برفق وسألها بصوت يحاول فيه أن يتمالك أعصابه فمنظرها مثير للشفقة.

- المستشار: لم كل هذه الدماء؟

أجابت الفتاة بصوت متهدج:

- عندما حان الوقت لاستيقاظ الملك، ذهبت كعادتي لأعد له الحمام وأجهز له ما يلبس لذلك اليوم.. كان السكون قد خيم على المكان، فقد كان الملك من عادته عندما آتي في ذلك الوقت أن أجده والملكة مستيقظين.. ولكن هذه المرة كان الهدوء قد سكن المكان.. الرائحة.. (وسكتت)
- المستشار: أكملي ولا تتوقفي.. لا تخافي.. ولا تقلقي.. فنحن كلنا هنا لنعرف الحقيقة، أرجوك أكملي..
- الفتاة: أول ما يصدمك كانت الرائحة.. يا إلهي رائحة الحديد.. رائحة الصدأ.. وعندما أضاءت الأنوار.. شاهدته.. لقد شاهدت الملك، وهو على كرسيه مضرجًا بالدماء.. نظرات الرعب لن أنساها مدى حياتي، لا أعرف بماذا كنت أفكر، ولكني قمت لا شعوريًا، وحضنت جلالة الملك، وقد حاولت أن أنزع السكين من جسده، لكن تراجعت في آخر لحظة. (ومضت تسرد شهادتها قائلة): لقد تراجعت، لأنني لو فعلت ذلك لكنت أول المشتبه بهم. ولأصبحت المتهم الأول في مقتل الملك.
- المستشار: وأين كانت الملكة؟
- الفتاة: لا أعلم.. لم أشاهدها عندما دخلت الحجرة.
- المستشار: وهل لديك شيء تضيفينه للتحقيق، أمر قد يكون تافهًا وغير مهم.. صدقيني ممكن أن يساعد في القضية.
- الفتاة: لا يا سيدي فلم أرى شيئًا.

وبدأت بالبكاء مرة أخرى ورغم صوتها العالي وإغمائها المتكرر لم يَرَ أي دمعة تخرج من مقلتيها، مما أثار استغرابه، ولكن لم يعر للأمر أهمية فهي كبقية النساء، والنساء غريبات الأطوار بعض الشيء.

انتهى المستشار من الاستجواب، وراح يصدر أوامره، وقد كان الناس شبه مشلولين، حتى الحراس لم يعرفوا كيف يتصرفون، وماذا يفعلون.

وجه المستشار كلامه إلى المتجمهرين الذين لم ينصاعوا للحراس ووقفوا غير راغبين بالتحرك من موقع الحدث وقال بصوت حازم:

- اذهبوا إلى منازلكم الآن، وادعوا لمليككم بالرحمة والمغفرة؛ فوقوفكم هنا لن يجدي نفعًا.

وعندما غادر الجمهور كان المستشار لا يزال مشغولًا بإصدار الأوامر، ولكن الذي لم ينتبه له أن هناك من لم يعجبه الأمر فقال أحد الحاضرين:

- نحن لا نأخذ الأوامر. فقد كان الملك هو صاحب السلطة علينا، ولكن بعد موته لا أحد يأمرنا بفعل أي شيء لا نريده.

احمر وجه المستشار وأحكم قبضته، وقال بصوت يشعرك أنه يريد أن يقتل أحدًا فأمسك به الحاضرون لأنه فعلًا بدأ بالهجوم على الرجل وكاد يفتك به، وأعاد ما قال:

- هذا أمر للجميع، الكل يذهب إلى مخدعه ومن يخالف التعليمات سوف يعاقب عقابًا بالحبس، أفهمتم.

صرخ الجميع بصوت واحد

- نعم أيُّها المستشار.

وقال أحدهم:

- سوف نفعل كل ما تقول، ولكن هدئ من روعك أرجوك.

زال عنه الغضب عندما شاهد الجميع قد انصرف، فعاد وتمالك أعصابه حيث استدار واختار ثلاثة من الحراس وخاطبهم قائلًا:

- سوف نبدأ في استكمال التحريات.. أرجو منكم جمع الأدلة.. وكل واحد منكم يستلم زاوية معينه، ويجمع كل ما تشعروا أن له صله بهذا الحادث، حفظ الله مملكتنا. هيا لنبدأ.

فبدؤوا في جمع الأدلة والتقاط الصور ورفع البصمات وضع الخنجر في صندوق خشبي، وقال في نفسه: (مع كل هذا الأدلة سوف تساعدنا في الكشف عن قاتل الملك الحبيب). وما كاد اليوم ينتهي حتى أتمَّ رفع الأدلة جميعا. فطلب من الحراس نقل الملك، ووضعه على سريره ونزعت عنه الملابس الممزقة ونُظف بأفخر العطور ووضع في سريره ريثما ترتب الجنازة، وتجرى التحضيرات بطريقة تليق بمقام الملك. لم يكن يعلم كيف يحضرها، ولا كيف يتعامل مع تلك الأمور، ولكن سوف يبحث ليس لديه خيار آخر.

وبعد أن انتهى طلب من الحراس عدم لمس الجثة، وأن لا يسمحوا لأي أحد أن يدخل الغرفة مهما كان منصبه حتى يجتمع مع القادة والمعنيين بالأمر لينظر ماذا يفعلون بعد ذلك، ويصدر قرارًا ماذا نفعل بعد ذلك.

عندما عاد إلى مخدعه واستلقى على المقعد، شعر بحمل وشعور الألم والذهول، فقد كان يعتقد أن القبة في استقرار وأمان.. أن الملك لن يموت أبدا فهو بعمر هذه القبة، كيف له أن يتلاشى هكذا؟ كيف يعقل؟ شعر بالخيانة والغضب أراد أن يصل إلى الحقيقة مهما كان الثمن.

فقد شرع يفكر في كل الاحتمالات والتوقعات الممكنة التي سوف تحدث بعد الملك، فقد كانت الحياة سلسة تمشي كالساعة، والملك هو المرجع لكل أمر فهو كالموسوعة يحفظ من الأبيات والقصص والحكايات ما يجعلك تُدهش من هذا العقل الفذ، كل من في القبة أبناؤه وبناته يعاملهم بعدل وسواسية.

انتهى من عمله جلس على المقعد القريب وهو يلهث منهك مشتت.. وحينما ترتبت أفكاره مرة أخرى، طلب من ناقل أخبار القبة بصوت متحجرش ويحاول أن يسيطر على صوته فتنحنح وقال بلهجة آمرة:

- أخبر جميع من في المملكة على لساننا بأن غدًا يوم تشييع جنازة الملك، ويبدأ من الآن الحداد عليه مدة أربعين يومًا. لا أحد يخرج من بيته إلا للضرورة القصوى. هذه هي الأوامر انطلق الآن.
- ناقل الأخبار: حاضر أيُّها المستشار.

وولى مسرعا ينادي ويطبل بصوته الجهوري يتكلم، ويضرب الطبل بحركة واحدة يعلن ما أخبر به المستشار.

جلس بجانبه صديقة القديم، وقال:

- أرجو أن لا تمانع إن جالستك قليلًا.
- لا، أرجوك فأنا في حاجة للتحدث مع أحد.
- لقد تغيرت الحياة بين ليلة وضحاها يا صديقي.
- أجل أنت على حق (فتفرسه وهو ينظر إلى وجهه).
- ما هي خطوتك القادمة؟
- سوف أعثر على القاتل.
- أكيد، ولكن هل فكرت أنت ماذا سيحصل لك بعد الملك؟
- لا، لم أفكر، ولا أريد أن أفكر، هدفي الآن هو القاتل، إني أشعر بالضيق، وتخنقني العبرة مجرد أن أتذكر منظر الملك وهو يجلس شاخصًا على كرسيه، أشعر أني لن يهدأ بالي حتى أصفي حسابي معه، سوف أكون يد العدل التي تسحق المجرم.

- اهدأ يا صديقي؛ فانفعالك وكلامك يخيفني!
- ألا تشعر بالغضب؟
- نعم، ولكن أنا أفكر بنفسي أولا.
- أنت أناني وسافل، اخرج من مخدعي على الفور.
- أرجوك افهمني.
- لا أريد أن أفهم.. كنت أعتقد أنك تشعر مثلي بالألم، ولكن أجدك تتكلم عن نفسك أيُّها الأناني.. اخرج أرجوك.
- سوف تفهم في الوقت المناسب، والآن سوف أدعك وشأنك، واعلم جيدًا سوف أنتظر زيارتك عندما تكون مستعدًا للحقيقة.
- إن الحقيقة التي أراها أن الملك قتل، وأنت تتكلم عن نفسك.

جره من على المقعد، ودفعه إلى الباب، وأغلق الباب خلفه.. كانت هذه المرة الأولى التي يبكي فيها.. انهار واستمر في البكاء إلى أن غشاه النوم.. فنام، ولكنه لم يستمر هذا النوم سوى ساعات قليلة حيث تخللت أحلامه الكوابيس.. نهض من المقعد فوجد كتاب الهمسات ولكن هذه النسخة كانت مختلفة.. وعندما نظر إليها جيدًا تذكر أنها كانت النسخة الخاصة بالملك، فهي الوحيدة التي كانت مجلدة بالجلد الأحمر القاني ومختومة بحروفه الأولى. بدأ بالقراءة؛ عله يجد الراحة ولكن ما وجده كان النقيض عن ذلك، فرغم أن الملك علمهم أنهم مخلدون لا يوجد خطاء وصواب إنما يفعل المرء ما يشعر انه مناسب

وأن لا يوجد ثواب وعقاب إنما حياة لا معنا لها، وما يجعل هذه الحياة لها معنا هو النظام والعمل. ولكن في نسخة الملك وجد ما لم يكن يتوقعه، لقد وجد بابًا كاملًا يتكلم عن الموت والتحضير للموت وعندما قرأ اسم الباب خرَّ منهار مرة أخرى، ولم يستطع القراءة.

***

الفصل الثاني..

..ماذا بعد؟

القبة عبارة عن مبنى زجاجي في أعماق المحيط مصممة على الطراز المغربي بألوانه الدافئة مثل اللون البرتقالي والأحمر، وضعت هذه الألوان ليشعر الجالس فيها بالدفء والراحة، أما الأبواب الداخلية فهي بالخطوط المستقيمة والواضحة، لا توجد بها أي تعقيدات سهلة التنفيذ، أما النقوش التي في الأثاث فهي تعتمد على مكانها، ففي المخدات فتجدها قليلة، أما في الجدران، وكانت قليلة، فتمتاز بإبداع نقوشها، وكأنها لوحة لفنان فتجد الأثاث مكونًا من زجاج وفخار، أما المصابيح فمن المعدن منقوشًا والفسيفساء الجميلة تزين الجدران والأرضيات تمتاز بمهارة الحرفيين المهرة الذين شيدوها.

تنقسم القبة إلى أقسام، من الأعلى إلى الأسفل، فالدور الذي يقترب من السطح هناك تنبت الخضار والفواكه التي يتغذى منها أهل القبة، وهناك أيضا أنواع جمالية تتسلق وتنتشر في أنحاء القبة.

في الدور الثاني هناك قاعة الطعام، وهي عبارة عن أربع طاولات كل طاولة مكونة من خمسين مقعدًا لا يقدم سوى الأكل النباتي أو ما يأتي من الأشجار والزرع.. وهناك أيضًا مركز التدريب متعدد الاستخدامات يتسع لأكثر من خمسين متدربًا، وهناك قاعة مرفقة له أيضًا تتكون من أحدث الأجهزة، وقاعة للعلاج الطبيعي ومسبح مجهز بالكامل لكي يتعلم فيه الأعضاء منذ نعومة أظافرهم كيفية القتال بأنواعه وكيفية الرماية واستخدام الأسلحة.

أما القاعة التعليمية فلا يوجد فيها سوى مؤلفات الملك فقد أشرف بنفسه على كتابة المناهج المخصصة لكل مرحلة، هناك قواعد يجب ان يتقنوها ويتبعوها، وأغلب المراجع تصب في كتاب الهمسات الكتاب المتبع، والمقدس لديهم ممنوع على أي كان أن يتغيب عن الحضور إلا بعذر موقّع من الملك نفسه.

عدد المقيمين في القبة لا يتجاوز مئتي فرد فقط، أكثرهم من الشباب، فلم يكن هناك من كبار السن سوى الملك الذي قُتِل الآن ذلك الشيخ الذي يتميز بطبع كاريزماتي، ولكنه كثير الغضب، بذيء اللسان، لا يثق في أحد، قوي البنية، لا يكاد ينافسه أحد رغم كبر سنه خصوصًا أثناء المبارزة بالسيف، لطيف، مبتسم مع الذين يحبهم.. أما مع من يغضب عليهم فلا يجدون منه عطفًا أو محبة مهما حاولوا أو استماتوا..

أما زوجة الملك فهي متوسطة العمر في العقد الثالث بعينين بنيتين مثل اللوز، وشعر أجعد لامع جميل تتخلله بعض القواقع جميلة الألوان، رشيقة القد بنية اللون، فم رقيق وعندما تبتسم – ونادرًا ما تفعل ذلك – تظهر أسنانها البيضاء تلمع من بعيد دائما ساهمة الفكر، وكأنها بعيدة لا تريد أن تحتك بالعالم.

أما المستشار، الذي هو بطل قصتنا، فهو رجل لطيف مسالم يتبع الملك ويدعمه ولا يخالف له رأيًا حتى لو كان على حساب نفسه.

كان هذا العالم ممتلئا بالحب والتضامن الاجتماعي، كل شيء يقسم بالتساوي لا توجد طبقية بينهم. كل شيء يمضي كالساعة الأكل والنوم وحتى التدريب والتسلية. وعلى الرغم من تجانسه إلا أن به كثيرًا من التناقضات. هناك الحب غير المشروط، والكره إلى حد النفي في بعض الأحيان. المخطئ يعاقب أشد العقاب، ومن العقوبات: العزل والضرب والتجويع.

هذا هو عالم القبة.. لا توجد فيه طبقية، ولا يوجد فيه تفوق جنس على آخر. كلٌ لديه المهام والواجبات نفسها.

يقال إن تاريخ القبة يرجع إلى آلاف السنين، ولا يسكنه إلا حظوة من البشر الملك أتوم له اليد العليا في كل شؤون القبة «من ماذا نأكل وماذا نلبس».. وحتى بمن نتزوج يطبق كتاب الهمسات، وهو الكتاب المقدس.

وكما أمر المستشار - توشح الناس بالسواد، وبدؤوا يتوافدون على القاعة العامة أو قاعة الصلاة كان بعضهم ساهمين، وهم في حزن عميق، وأخذ بعضهم الآخر - وأكثرهم من النساء والأطفال - بالصياح والعويل على ملك لن يعرفوا مثله، ولن يستطيع أحد سدّ هذا الشاغر لقلوبهم، فهم لا يعرفون سوى هذا الملك.

اقترب أحد الحرس وهمس في أذن المستشار:

- لقد كان الملك كأب لي إني حزين على فراقه.

وقال آخر:

- لقد كان كل حياتي، ماذا سوف نفعل بدونه؟ كيف سأحيا أيُّها المستشار أخبرني.

وبدأ بالبكاء المر الذي اضطر إلى تدخل بعض الحراس ليبعدوه عنه.

كان يقف هناك صامتًا لا يعلم ماذا يفعل؟ ولا ماذا يقول؟ فقط كان يحاول الاهتمام بالجميع، وعدم إشعار الجميع بأنه مثلهم حائر حزين لا يعرف ماذا يفعل.

لم يتصور أحد يومًا أن هناك أمرًا يدعى التوقف عن الحياة، ولكن كان أكثر الأسئلة إلحاحًا في أذهان أغلبيتهم: كيف توقف عن الحياة؟ ولم هذه الطريقة في الموت؟ وما السبب الذي جعل المجرم يرتكب هذا الأمر البشع.

لم يستطع مشاهدة ذلك المنظر.. النساء الحيارى والرجال الغاضبين الذين يريدون أن يحققوا العدل بسرعة الشجار والأحاديث والنقاش الذي بدأ يقتلب إلى الشجار ليروي غليلهم من موت الملك..

الأطفال الذين لا يفهمون شيئًا ولكن يشعرون بحزن الحضور وكأنهم يعلمون أن هناك أمرًا جللًا ولكن لا يستطيعون تحديد الأمر أو فهمه.

في هذا الهرج شعر أنه يريد أن يختلي بنفسه، فقام وتسلل من مكانه دون أن ينتبه اليه أحد، ودخل إلى أقرب مكان وقد كانت القاعدة المخصصة بالدرس، وأخرج الكتاب وبدأ يقرأ الهمسات الخاص بالملك.

ذلك الكتاب الذي لم يفارقه حتى في أيام مرضه كان ملازمًا له طوال حياته، كيف وصل إليه من وضعه على طاولته لا يعلم، ولكنه شعر أن ذلك الكتاب هو الحل فهو الآن لا يعلم ماذا يفعل ولا كيف يجاوب عن أسئلة الجموع التي قضت عليه، وعن طلبهم له بحل الأمر فورًا فملامح الاستنكار والاستهجان والغضب بادية عليهم، وكأنه لديه الحلول، وهم لا يعلمون أنه أكثر إنسان حائر بينهم.. فقد كانوا كالقطيع لا يفكرون إلا بأمر القائد وسعادتهم متوقفة على مزاجه المتقلب فمن السهل أن تجعل شخصًا آخر يقودك فالتفكير متعب يحمل الإنسان ما لا يطيق.. كيف يفكر.. ضرب بيده وقال:

- تبًا ليت القائد يكون معنا الآن!

فوقع الكتاب بين يديه وجد أن الغلاف نفس غلاف الهمسات ولكن الهوامش تختلف وتفسير الكلام يختلف تعليقات بذيئة وكلام خادش، حتى إن المستشار احمرت أذناه من الخجل، ولكنه حاول أن يستمر بالقراءة؛ عله يجد الحل، وما هي الخطوة التالية التي يتبعها.. بدأ الغضب والشك يظهر عليه، وهو يقرأ الكتاب على عكس الكتب التي درسها هذا الكتاب يعتبر أسوأ الطبعات، وكأنها ملاحظات تخصُّ

فتى مراهق، وليس من يقتنيها الملك نفسه، ورغم ذلك شعر أنه لا بد له أن يحق الحق، ويأخذ ثأر الملك بيديه فلن يشفيَ غليله إلا بتقطيع أوصال القاتل بكلتا يديه.. لم يتوقع أن تأخذ قراءة الكتاب كل هذا الوقت ولكن قاطعه أحد الحراس، وطلب منه الحضور لإتمام اليوم الأول فقد جلس الجميع على طاولة الطعام، وينتظرونه لمباشرة المراسم ما إن حضر حتى بدأ الهمس من جديد يعلو القاعة، وكان احد الحاضرين ينظر إليه نظرات كلها غضب، فصرخ وقال:

- أيعقل إلى الآن لم تجدوا قاتل الملك، ونحن حفنة قليلة؟!

علم أنه لن يدعه الناس وحده، ويجب عليه أن يبرر ويفصل لهم الأمر، ولكن ماذا يفسر فقال:

- أعلم أنكم حائرون مثلي تمامًا، ولكن سوف نبذل جهدنا للتعرف على القاتل، وأنا شخصيًا لن يهدأ لي بال حتى أقبض عليه، أفهمتم؟ لقد كان أبي وقائدي، واعلموا أني ساندته وكنت معه من قبل ان تأتون للقبه جميعًا.
- أنت تقول ذلك لتسكتنا.

نظر إليه نظره كلها شرار، ولم ينظر إليه وأكمل حديثة وقال:

- اعلموا أنا لا أتكلم من فراغ، والأمر أن هذه الحالة الأولى لنا نتعامل مع هذا الأمر، وتتطلب العناية بجثمان الملك خطوات نحن إلى الآن نجهلها فأين سنضع الملك، لقد بدأت رائحة جسده بالانتشار، فحتمًا هناك طريقة لإخفاء ذلك، عليكم

والصبر؛ فنحن كلنا نمر بمشاعر متضاربة لأننا لا نعلم ماذا يحدث بعد ذلك، وأنا أتفهم الأمر أنتم إخوتي وأخواتي وكلنا أسرة واحدة، ومصابنا واحد أيُّها الأعزاء.

عندما جلس سكت الجميع؛ فقد شعروا بصدق المستشار في حديثة وبدأ بتقديم وجبة الغداء كانت القاعة يعمها السكون، لا تسمع سوى أصوات الملاعق التي تصتك بالصحون، وعند الانتهاء خرج الجميع بصمت، وعادوا جميعًا إلى مخادعهم، وهم في حزن واجمين.

عندما انتهى الغداء عاد للقراءة مرة أخرى، وبعد قراءة عميقة، وفي الفصل الأخير من الكتاب وجد باب الموت وهو ما يلي نص المكتوب: «تعريف الموت هو انتقال الإنسان من عالم الأحياء إلى عالم آخر، وهو عالم الأبدية، وهو اليوم الذي ننتظره بفارغ الصبر، أعلم أنه غريب على هذا الأمر في عالمي، ولا أعلم لم أكتب هذا الفصل، ولكن هأنذا وبلا مبرر أكتب هذا الجزء رغم أن هذا الكتاب خاص بي، ولا أحد يستطيع قراءته غيري، لا أعلم هل أنا أتشاءم على نفسي، لا أعلم ولكن أشعر أن كتابًا شمل الزواج والولادة فلا بد أن يشمل الموت فهي دائرة لا بد أن تكتمل...»

في هوامش الكتاب وعلى جنبه وجد خريطة، وفي المنتصف كان مكتوب عليها المعبد، نضر إليها جيدًا فتعرف على المكان إنه خارج القبة على السطح لإتمام عملية الدفن «عليك يا من تستلم جثماني أن تفعل التالي:

أولا: عليك أن تضع جثماني في تابوت يحفر على شكل جسدي وملامحي، دع النجار يفعل ذلك، ولكن قبلها دعه يتطهر ويقرأ الصلاة المكتوبة أسفل هذه الملاحظة كان الخط لا يُقرأ ولكن في النهاية قرر أن تكون الصلوات هي الصلوات العادية التي تُقرأ يوميا.

ثانيا: على المستشار والطبيب أن يشرفوا على تطهيري للعالم الآخر واذا اختير أحد لمساعدتهم، عليهم أن يتطهروا بأن يصوموا لمدة أربعة أيام قبل لقائي والاغتسال بالماء البارد، ولبس الثياب البيضاء على شكل مئزر، أما من لم يفعل ذلك احذره من ارتكاب هذه الخطيئة، وإلا حرمت العبور إلى العالم الآخر».

انتهى المستشار من قراءة الباب، وفي لمح البصر قفز وبدأ بتنفيذ المراسم في البداية استدعى النجار وقال:

- اريد منك ان ترسم على ورق رسم كامل لجسد الملك.
- حاضر سيدي ومتى تريد هذا النموذج؟
- غدًا.

اندهش النجار فلا أحد يستطيع الرسم بهذه السرعة وخصوصًا أن الأمر متعلق بجلالة الملك، ولكنه لم يعترض وقال من فوره:

- حاضر سوف أشرع في العمل حالًا.

واختار عشوائيا اثنين من حراس الخاصين، وأشار اليهم وقال:

- أريد منكم أن تستعدوا وتذهبوا للتطهر فقد اخترتكم لمساعدتي لمعالجة جثمان الملك..
- حاضر، ولكن كيف نستعد؟
- عليكم لمدة أربعة أيام الصيام، ثم التطهر بالماء البارد، ثم لبس المئزر الأبيض والدخول في حالة الصمت.
- أمرك سيدي.
- الآن أرجو منكم المساعدة فأنتم أفضل جنود لدي، وأعلم أني أستطيع الاعتماد عليكم.. (سكت الحارس وتبع المستشار بدون أي تردد).. وأنا اعتمد عليكم كليًا.

كانت نظرة الارتياح بادية عليهم، فقد شعروا بالمسؤولية التي حملت على أكتافهم الآن، وبدأت معالم الجدية والهمة وذهبا ليبدأا طقوس التطهير.

أما الطبيب فقد كان أصلًا بجوار جثة الملك يحاول أن يعالج رائحة التعفن التي بدأت تنتشر في المكان فقال:

- المستشار: أخبرني هل تعلم كيف نعالج هذا الأمر؟
- الطبيب: لا.. لا أعلم.. فأنا محتار مثلك.
- المستشار: لقد قرأت في كتاب الملك ما يجب أن نفعل، ولكن أريد خبرتك في التطهير وخلفيتك في معالجة الجروح.
- الطبيب: ولكن أيها المستشار أريد أن أخبرك بأمر، ولكن لا أعرف ماذا أقول؟

- المستشار: أخبرني ولا تقلق فنحن – كما تعلم – هنا في نفس السفينة.
- الطبيب: لقد تم تعذيب الملك قبل أن يقتل.
- المستشار: وكيف علمت ذلك.
- الطبيب: وجدت، وأنا أنظف الملك لألبسه الملابس التي أمرت بها، وجدت هناك كدمات في جميع أنحاء جسد الملك وقد اقتلعت أظافره.
- المستشار: هل لك أن تكتم هذا الخبر، وسوف ننظر بالأمر بعد المراسم.
- الطبيب: نعم أكيد أكيد لا تقلق.
- المستشار: علينا أن نحضر ثلجًا ونضع الملك في حوض ثم نسكب عليه الثلج كي يتسنى لنا فعل الأمور الأخرى.
- الطبيب: دعنا نبدأ.

باشروا العمل.. ووضع الثلج على جثة الملك كما وصى على ذلك بنفسه، ولكنه لم يستطع أن يمحي من تفكيره السؤال الذي طرح نفسه كيف عذب الملك ولا أحد سمع صراخه؟

لقد كانت جدران القبة رقيقة، ويسمع الساكنين الحجرات بعضهم البعض حتى إنك تستطيع أن تستمع إلى جارك، وكأنه معك في نفس الحجرة، ولكن الآن لا وقت للتفكير الآن، قال لنفسه «يجب أن نركز على الملك» عندها التفت عليهم.

بعد مضي أربعة أيام، وعندما انتهى الحراس من اعتكافهم وتطهرهم بدأ العمل ففتح الكتاب وبدأ بالقراءة والتفسير للبقية وأخذ يعطي التعليمات للطبيب والحراس يخبرهم الخطوات المتبعة وحرص على أن يجعلهم يقرؤون الجزء الأخير من باب الموت بأنفسهم، وشرحها لهم شرحًا مفصلًا قبل بداية العمل كي لا يحصل أخطاء في الترتيبات، ورغم ذلك لم يعطهم الفرصة لمس الكتاب حرصًا وخوفًا منه على أن لا يعبثوا ببقية الكتاب، وإنما جعلهم يفهمون ويقرؤون ويستوعبون ما هو مكتوب ليطبقوا مراسم الدفن بحذافيرها فقد وجد أن الأمر لا يستطيع فعله بمفرده، وهو أمر أكبر من أن يتحمله وأكبر من قدراته..

حملت جثة الملك، ووضعت على حوض الغسيل قرب الماء والملح وغسل، فقد كتب أن هذا الأمر يساعد على إزالة الأوساخ وهي تساعد أيضا على استعداد الجسد على البعث والولادة من جديد لمقابلة واستقبال المعبودات الخالدة عندها التفت المستشار، وقال:

- هل لديك الآلة التي وصفت بالكتاب؟
- الطبيب: اعتقد أنها لدي دعني أذهب للعيادة.

عندما عاد تنحّى المستشار، وقال:

- أعتقد أن هذه الخطوة يجب أن تفعلها بنفسك فليس لنا خبرة باستخراج المخ والأعضاء.

كان الطبيب يتصبب عرقًا، يرتعش لا يكاد يمسك السكين التي بيده؛ فهو لم يختبر مثل هذا النوع من العمليات، فهو فقط قرأ في الكتب الطبية المحدودة الموجودة في المكتبة التي تهتم فقد بمعالجة الجروح والحروق وكيفية الولادة والكسور هذه الأشياء المحدودة فقط التي كان يعالجها، أما التعامل مع الجثث فهو أمر يرعبه خصوصًا أن لا أحد من الحاضرين في هذه الغرفة لديهم الخلفية اللازمة للتعامل مع هذا الأمر. في كتاب الهمسات مكتوب يجب أن يفرغ الجسد من الأعضاء ولا يبقى القلب مكانه؛ فهو أمر ضروري لإعادة الحياة للمتوفي مرة أخرى، بعد هذه الخطوة يجب حشو الجسد بالكتان المشبع بالقار، بعدها سدت الفتحات من عين واذن وفتحات الأنف بالشمع المصهور ثم يترك ليجف بعد أن يرش ببيكربونات الصوديوم عندها التفتوا إلى الأعضاء المزوعة، وغسلوها ثم وضع كل عضو بوعاء خاص بعد أن ملئ بالبصل واليانسون والمر، عندها لم يسع المستشار إلا أن يجلس في إحدى المقاعد منهكا من التعب فقد أخذ منهم الأمر أكثر من تسع ساعات جلس يحاول استعادة زمام الأمور، ولكن ورغم أن الملك مستلقٍ على الطاولة، ورغم أنه يساعد في استعدادات التحنيط، ولكن إلى الآن لم يصدق أنه رحل عنهم كانت الدموع تتساقط بلا أي سيطرة منه ماذا عساه أن يفعل الآن.

اقترب الجندي، وعليه أمارات التعب، واستأذن المستشار وقال:

- هل لديك أوامر أخرى سيدي؟؟

أشار إليه بيده إيذانًا بالانصراف، ولكنه التفت مرة أخرى وقال:

- سوف تكون قاعة الملك المزار الخاص للمواطنين اجعل بقية الجنود يعدو القاعة لذلك..

مرت الأيام والناس في حزن يتساءلون.. والمستشار يحاول تهدئة العامة، ولكنه قرر أن لا يفعل أي شيء إلى أن ينتهي من مراسم جنازة الملك.. وفعلًا عندما انتهى اليوم الأربعون أصدر التعليمات بأن تقام المراسم، وأشرف على الأمر بنفسه، فرفعت صور الملك في كل مكان، وأُعد له مأتمًا يليق به. طاولات الطعام مرتبة حسب الأصول، والطعام في مكانه، والخدم يتسابقون في الخدمة. لا أحد من المواطنين يشعر أنه هُمش، أو لم يُضيف على أكمل وجه.

يوم حميمي جدًا، وممتلئ بالحب لرجل لن يتكرر. كل فرد أخذ دوره في تذكر ما فعله الملك معه.

عندما اكتمل عدد الحضور، وقف المستشار متأثرًا وبدأ بالقول:

- كما يعرف الجميع فإن الملك كان أبًا لجميع من في هذه القاعة، ولكل منا قصص جميلة ودعم منه.. فقد ساعدنا على النمو، وقرب كل من يستحق ووضعه في مكانه المناسب، لقد كانت لديه الموهبة بمعرفة قدرات الأشخاص منذ نعومة أظافرهم.. أعزائي الحضور لقد قُتل الملك، ولا أعرف إلى الآن من قتله، ولكني أعدكم، وهو الآن يرقد أمامي أني لن يهدأ لي بال حتى أنتقم لوالدنا العزيز الملك أتوم.

كان يتكلم وينظر إلى الحضور، ويقرأ تعابير ملامحهم، وعندما التفت المستشار أخيرًا إلى الملكة، كانت تنظر إلى الحضور ساهمة، حتى إن نظرتها إليه أخافته، فقد شكَّ أنه لمح شيئًا من السعادة في محياها، على الرغم من محاولتها إبداء الحزن. كان شكًا فحسب، لم يصل إلى اليقين والتأكد. فأخبرها بوجوب اجتماع الزعماء للمشورة، والتشاور، والبحث عن حل لمسألة قيادة القبة، وكيفية إدارة شؤونها.

- المستشار: يجب علينا أن نأمر باجتماع القادة يا سيدتي على الفور.
- الملكة: ولمَ؟
- المستشار: يجب علينا أن نحدد ونضع الخطط، لما سوف نفعله بعد غياب الملك.
- الملكة: ليس هناك داع، لذلك فقد أصدرت أوامري. سوف نرتقي إلى أعلى.

كان المستشار ينظر إليها غير مصدق. كان يعلم علاقة الملك بالملكة، وكيف أنها كانت مجرد صورة أمام الجميع، بل كانت في الحقيقة أسيرة هذه القبة.

تجاهل المستشار الأمر. وطلب اجتماعًا طارئًا للقادة. سوف يصلح الأمر، ويصل معهم إلى اتفاق يرضي الجميع.

- الملكة: أنت لست الوصي عليَّ واحترمْ من هو أعلى منك منزلة!

كان يشعر بوجود غضب لدى بعضهم، ولكن لمَ هم غاضبون، ولما الامتعاض من الملك، فهو على حد علمه لم يكن سوى مثالًا صادقًا للشهامة والشجاعة والقوة والصدق.

- المستشار: عذرا أيتها الملكة أنا لم أتعدَ الحدود، ولكن هناك أمور لم تحل بعد، ويجب على أحدنا التعامل معها، وأنا ارتأيت بما أنكِ حزينة فرتأيْت أن أفعل ذلك عنك.
- الملكة: لن يقرر أحد ما أفعل بعد أن مات الملك سوف أذهب الآن.

وقفتْ ودفعت الكرسي، حتى إنه كاد أن يسقط ورحلت هكذا استغرب تصرفها، ولكنه طمأن نفسه بأنه سوف تظهر الحقيقة سواء اليوم أم غدًا، فأمر المجرم سيظهر لا محالة.

الشيء اللافت في الجنازة أن قبيلة المساعدين والجحافل المائية لم يحضر منهم أحد، فقد آثروا عدم الحضور، فثارت الشكوك حولهم وأصبحوا على قائمة المشتبه بهم.

***

الفصل الثالث..

..الجحافل المائية

«عندما تذهب قوة العقول، فلا فائدة من ضخامة الأبدان»

كان هذا المثل دائمًا ما يقوله الملك عندما يعود من رحلته الشهرية من عند قوم الجحافل، لم يذهب لهم قط ولا يعلم أين تقع مملكتهم ولكن استعان بمؤتمن ذلك الشاب الذي يسير خلف الملك دائمًا حتى إنه لا يفارقه أبدا سأله وقال:

- المستشار: هل لك أن تدلني أين تقع مملكة الجحافل؟
- مؤتمن: ولكني لا أستطيع أن أخبرك إنه سر بيني وبين الملك
- المستشار: ولكن يا مؤتمن ان الملك مات، ويجب أن نخبر حلفاءه لنعرف ما هي الخطوة التالية بعد وفاته؟.
- مؤتمن: إن أخبرتك سوف أُحرم من لقائه مرة أخرى.
- المستشار: وهل تعلم من قبل أن الملك سوف يموت.
- مؤتمن: لا لا، ولكن كان الملك كانه يشعر برحيله، وكان يقول لي أن ما سمعته وشاهدته معه يجب أن يبقى سرًا.
- المستشار: نحن في ظروف استثنائية ألا تريد أن تنتقم للملك؟
- مؤتمن: بلى ولكن!
- المستشار: لا تتردد، ألا تشعر بالغضب؟ ألا تريد أن تثأر للأب الذي طالما حمانا وربانا، ألا تذكر أنت خصوصا لقد كنت محضي الملك، لا يأكل إلا برفقتك ولا يبدأ الدرس إلا وأنت حاضر.

- مؤتمن (أطرق رأسه وقال): بلى أتذكر، ولكن وصية الملك!
- المستشار: دعك الآن من الوصية، الأولوية لإمساك بقاتل الملك. (عندها أخبره، وراح يرسم خريطة المكان وقال).
- مؤتمن: يجب عليك إذا أردت الذهاب أن ترتدي ملابس خاصة، لذلك؛ فالمكان وعر ولا يمكنك الوصول إليه إنه يقع خارج حدود القبة.
- المستشار: أتعني يجب علينا السباحة للوصول؟
- مؤتمن: نعم، ولكن لا تقلق هناك كما أخبرتك ملابس خاصة بذلك سوف أذهب معك.
- المستشار: ولكني لا أحتاج إليك.
- مؤتمن: وهل تعرف لغة الجحافل؟
- المستشار: وهل لهم لغة غير لغتنا؟
- مؤتمن: نعم، لغة يصعب عليك حتى فهمها، ولكني كنت دائمًا مع الملك، وتعلمت من لغتهم الشيء الكثير.
- المستشار: حسنًا.. حسنًا جهز نفسك.
- مؤتمن: حاضر، ومن فوري سوف أستعد يا سيدي.

لم يرسل المستشار إلى قائد الجحافل أيًا من الجنود، فهو يعلم مدى اعتدادهم بأنفسهم، فقرر الذهاب إليهم بنفسه. جهز المركبة، وتوجه إليهم مع مؤتمن ليخبرهم بالفاجعة، التي حدثت للملك. دون ذكر التفاصيل. فقد أراد أن يختبر ولاء القائد، وردة فعله.

مرتع الجحافل كهوف في قاع الماء. فهم مخلوقات تملك القدرة على التخفي أجسادها هلامية شفافة يرى ما داخلها تستطيع الإنارة من تلقاء نفسها، لا يرى لها ملامح انفعالية، لذلك لا تستطيع إكمال أمر ما لا يوجد لديهم الصبر على البناء، فسرقة عمران الآخرين هي أسهل طريقة بالنسبة لهم.. فقوتهم تكمن في التخفي، فكل حروبهم غدر ومكائد. غذاؤهم الطحالب. المرأة لديهم هي التي تخدم، وتجلب المأكل، وترعى شؤون المنزل. أما الرجل، فهو أرفع من ذلك، فليس عليه سوى حمايتها عند أي هجوم. فتجد المرأة في هذا المجتمع مغلوبة على أمرها، فهي من الساعة التي تفيق فيها إلى أن تنام تكون في حركة دائبة، كما لو كانت تعمل بالسخرة.

الحروب هي حياتهم، فهم يحبون الغزو والانتصارات، ليس لشيء، وإنما ليثبتوا للآخرين أنهم الأقوى، فتجدهم في حروب دائمة مع بعضهم البعض.

دخل المستشار وهو يرتدي الملابس الرسمية الخاصة، إذ إن الإنسان العادي لا يستطيع الدخول إلى تلك المنطقة من دون عدة الغوص الخاصة، فقد كانت مبتكرة يلبس القناع الخاص، وهذا القناع يعمل كتوازن للأذن، ولديه كشاف ليستطيع أن يرى ما أمامه ففي القاع يكاد الإنسان أن لا يرى حتى باطن يديه، فقد كان الضغط عاليًا في المنطقة التي يعيشون فيها لا يستطيع أحد من البشر - ولو كان

مدربا – أن ينزل إلى هذه الأعماق. ما إن رآه القائد حتى تقدم بحفاوة مصطنعة.

كانت أقواله تناقض نظرات الاحتقار والحقد التي كانت تبدو في عينيه، والتي كثيرًا ما أحسها، وهو ينظر إليه أو إلى الملك.

- القائد: أهلًا وسهلًا ما الذي أتى بك إلينا في هذا الوقت.
- (تقدم المستشار) وقال: أتيت هنا لأبلغك بخبر مؤسف، لقد توفي الملك.

لم يتوقع المستشار ما حدث، فقد قفز القائد من مقعده، وأمسك به، وظل يهزه بعنف، حتى شعر أنه سيخلع كتفيه من مكانهما، وصاح فيه متسائلًا:

- هل ما تقوله صحيح؟

كان المستشار في صدمة وذهول من ردة فعل القائد، فرد عليه بامتعاض:

- نعم لقد توفي منذ أربعين يومًا، ولكننا لم نخبركم؛ لأننا نعلم أنكم لا تحبذون العزاء، ولا تجتمعون له؛ لذا أتيت الآن لأبلغك بموعد اجتماع القادة الذي سوف يعقد غدًا.

قال جملته الأخيرة، وهمّ بالرحيل، ولكن القائد أوقفه، ونظر إليه مباشرة وقال:

- أعلم أنك استغربت ردة فعلي، ولكن أيها المستشار لا تغرك المظاهر، ولكن أنت لا تعلم حقيقة ملكك مثلي، لقد كان إنسانًا حقيرًا خائنًا للعشرة. نعم، أنا سعيد بأنه مات، ليس سعيدًا فحسب، لكن ينتابني شعور يفوق السعادة. لولا احترامي لك أيها المستشار لرقصت فأنت إنسان جدير بالاحترام فطوال هذه الأعوام وأنت لم تكن المستشار فقط بل كنت الحامي والمدافع عن قومنا ووقفت معنا وحاولت تهدئة غضب الملك المجنون علينا، ولذا سوف أؤجل احتفالي الآن، وأعلمك بحقيقة ملكك الزائف المخادع.. اجلس أيها المستشار.

لم يكن للمستشار أي خيار فقد جره وأجلسه إلى جانبه عنوة، وقال:

- أولًا هل كان الخاتم في يد الملك؟

استغرب المستشار من السؤال، فلماذا يريد القائد أن يعرف بأمر الخاتم، ولكنه أجابه وبكل صراحة وقال:

- لا لم يكن الخاتم في يد الملك.

لم يستطع المستشار تمالك فضوله وقال:

- ولمَ تسأل هذا السؤال الغريب؟

- لأن هذا الخاتم تتوقف عليه حياتكم أنتم بني القبة. سوف أمهلكم شهرًا لتجدوه، وإن لم تجدوه سوف أسحقكم، وأطهر هذا المحيط منكم.

انتفض المستشار، وأراد الكلام دفاعًا عن ملكه المحبوب، ولكنه فضل الاستماع إلى ما يقوله القائد. فليس من الحكمة التسرع. فقد يتصرف تصرفًا يندم عليه لاحقًا، ولكن القائد أوقفه، وقال له كلامًا أشبه بالأمر:

- لن تذهب من هنا حتى تعرف حقيقة ملككم الحقير اسمع أيُّها المستشار الساذج تعلم أننا السكان الأصليون لهذه البحار وأنتم من أتى واغتصب مملكتنا لقد كانت حياتي وحياة قومي بخير، وحتى هذا المحيط كان كله بخير. كل مخلوق يعرف حدوده. القوي له الغلبة، والضعيف عليه أن ينقاد ويطيع، الطبقية معروفة، ولا أحد يتجاوز الآخر، ولكن فجأة انقلبت الموازين عندما ظهور هذا الحشرة الذي تدعونه بالملك لقد كنتم كالدمى لديه، نحن أكثر المخلوقات التي تعرفه على حقيقته. أتى يطفو شبه ميت من مكان مجهول. كان حتمًا سيموت لولا أن شاهدته الغبية تلك الطفلة البريئة أختي الصغيرة التي ما إن رأته على شفا الموت حتى أخذته إلى مخدعها، وبنت له قبة مجوفة ليستطيع أن يعيش فيها لا أعرف كيف بنت تلك القبة، ولا من أعانها عليها.. ولكن

استطاعت أن تهيئ له كل وسائل التي تعينه ليستطيع العيش داخله. لقد علمت أنه ليس من هذا العالم، فلقد شاهدت بشرًا من قبل، ولكن لم ترهم بهذا القرب. ما إن أدخلته القبة حتى بدأ يستعيد وعيه شيئًا فشيئا وقال لها:

- شكرا أنتِ لا تعلمي كم أقدر لك معروفك.
- هل تعني ما تقول حقا فأنا أشعر أنك قريب مني فعلًا.
- وأنا أيضًا.
- هل تؤمن بالحب من أول نظرة، لقد شعرت معك وأنا أنظر إليك، وأنت تغوص في أعماق البحر، أنك لي جزاء مني يجب أن أهتم بك لذى ساعدتك أيُّها المحبوب لقد وضعك الله في طريقي لسبب.
- نعم لنكون معًا إلى الأبد.
- ماذا تعني؟
- هل تتزوجيني؟
- ماذا تقول أكيد نعم، فأنا أحببتك، ولا أرى حياتي من دونك.
- إذًا لنتزوج بأسرع وقت.
- تعال معي حالًا لأعرفك على عائلتي، فأنا أعرف أنهم لن يعصوا لي أمرًا فأنا أميرتهم المدللة.

وضحكت وسحبته من يديه..

لا يعلم كيف كان يراهم، ونحن مخلوقات الشفافة تشعر بنا كدمى مائية لا أحد يستطيع أن يرانا، فنحن لا يرى إلا ضوؤنا عندما نكون في أعماق البحر في المنطقة المعتمة هناك نعيش.

كم كانت غبية. فقد أحبته بكل جوارحها، فقد أدهشها جماله ووسامته، ولكن هو لم يرها إلا طوق نجاة لقد سمعت وصدقت ما أرادت أن تصدقه ورسمت في خيالها صورة وهميه عنه كانت دائمًا تبحث عن الحب في كلامه وتصرفاته، ولكنه لم يعطيها مرادها فلا هي عرفت كيف تكرهه ولا هو أُغرم بها كما أرادت.

ألح عليها أنه يريد التعرف عليَّ وعائلتي ووعدها بالوعود الكاذبة وعندما استعاد نشاطه قدمته لنا أنا ووالداي، فقد كانت الفتاة الوحيدة وكانت المدللة لدى الجميع تقدمت إلينا وقالت:

- أعرفكم على حبيبي سوف نتزوج عما قريب أرجو منك يا والدي أن تسمح لنا بالزواج.

كان غضب والدي عليها شديدًا واهتزت الأمواج وهو يصرخ في وجهها ويقول:

- كيف لك أن تدخلي عالمنا هذا الغريب ألا تعرفي خطورة وفداحة ما فعلتِ؟
- لا أنا لا أرى شيئًا من ذلك، ألا تريد سعادتي؟
- نعم أريد ذلك، ولكن ليس مع هذا الشيء.

- انه إنسان يا والدي، ولا تخاطبه بهذا الأسلوب فعما قريب سوف يصبح زوجي.
- ومن سوف يسمح لك بذلك؟!
- أنت.
- لا لن أسمح بذلك أبدًا ما حييت أسمعتِ؟

وبدأت بالصراخ ورمي الحجارة، عندها لم يستطع القائد سوى أمر الحراس بحبسها في مخدعها بواسطة أسلحة التجمد، وعندما أودعوها غرفتها فك الثلج عنها، ولكن لم تستطع الخروج من البوابة ثم أمر الحراس الآخرين، وزجوا بالغريب في الزنزانة إلى أن يُبتُّ في أمره. ولكن هذا الفعل لم يزد الأميرة إلا تعلقًا به، فهي كالطفل يتحمس للعبة التي لا تكون بين يديه، وما إن يحصل عليها يتركها، فعاندت زيادة وامتنعت عن الطعام، حتى إن الملك شعر بأنه إن لم يخضع لرغباتها ويتقبل هذا الدخيل، وإلا سوف يخسر ابنته إلى الأبد فقد بدأ نورها بالذبول، وبدأت تتلاشى فعلًا ورغم أنه أغراها بجميع الطرق، وحاول أن يحتال عليها بكل الوسائل، ولكن لم يثنِ عزمها شيء.

استغلت أختي المدللة كلَّ المفاتيح والحيل لاستمالة والدها حتى يرضى. مرة بالبكاء، ومرة بالسكوت، ومرة بالتهديد بالانتحار. كان والداها يريان ما لا تراه. ولكن أعماها الحب. فكيف لبشر أن يعيش بينهم؟! كيف لهم أن يتقبلوه؟! وهم السادة الذين يرون أنه لا يوجد أحد أقوى وأعز منهم؟ ماذا سوف يخرج نسلهم؟ في آخر المطاف،

رضخ والدي لطلبها. كنت في قمة غضبي أخذت بالتهديد والوعيد وخاطبت والديَّ وقالت لهم:

- سوف أقتلهما معًا إن تم الأمر.

كان الغضب يتملكني فقد كرهت أسلوب أختي معهما فشتمت وحتى إني تطاولت على أبي الملك، إلى أن اضطر في نهاية المطاف إلى نفيي لكي يحميهما من غضبي، ويحمي نفسه من انتقامي فقد فضّل الغريب، وأختي الغبية عليَّ أنا ابنه.

قال وفي صوته الغضب:

- وهكذا تسلل (أتوم) إلى حياتنا، وقلبها رأسًا على عقب. أتعلم أيها المستشار أن ذلك المدعي كان اسمه الحقيقي تقي الدين، وهو من لقب نفسه بهذا الاسم لكي يوهمكم أنتم الحمقى أنه إله. لقد كنتم له كالقطعان، يا لكم من مساكين!. ما يحزن أنه لم يكن يهتم بأمر أختي إطلاقًا، بل على النقيض، كانت تزعجه بفضولها، ومحاولتها التقرب منه. كيف له أن يحب من ليس له شكل، فهو لا يرى سوى هلام ضوء يسطع فقط. أتعلم لدى الإنسان قدرة على تجنب ونبذ لكل أمر لا يستطيع تفسيره حتى إنها قد تصل إلى العداوة والكره وحتى القتل أحيانًا للأشياء غير أن الأمر لا يستوعبه عقله أي شيء لا يستطيع ترجمتها في عقله سوف يحاربه ويطعن فيه

فهذا موضوع الخالق عز وجل أنتم وحدكم من أنكر وجوده رغم أن بقية الكائنات سمعنا وأطعنا، تجاهلتم خلقه ونسبته للعشوائية، ما أقسى قلوبكم وأشد كفركم!.

كان حزنها بائسًا ومؤلمًا فلم تكن تستطيع الكلام أو البوح بمشاعرها وحزنها لأحد. فقد شعرت بأنه لم يكن الرجل الذي أحبت، وأنه لم يكن الشخص الذي حلمت به، فهناك شعور بالغربة بينهما وكأنه ألم يسري في أنحاء جسدها وروحها البراقة تحتضر. أصبح بارد المشاعر، ولكن كانت تفسر ذلك بأنها الوحدة، ولكونه غريبًا في هذا العالم، لم يكن بينهما حوار غير عالمها وأسرارهم كان سؤاله الدائم لها أخبريني عن عالمك الساحر هكذا يبدأ الحديث فقد كانت ترى أن اهتمامه بهذا الأمر ما هو إلا ليصل لفهم عالمها ويتآلف معها ويجد شيء مشترك بينهما. علمته كيف يقرأ الكتب المائية، وكيف تقوم غزواتهم، وكيف يقضى عليهم، ولا يوجد شيء أقوى من الخاتم الذي يضعه والدها، وهذا الخاتم يستطيع تجميد المخلوق، وتشكيله على شكل زجاجي شفاف، فإما أن يحبس إلى أن ينتهي عقابه فيعود، أو تكسر هذه الزجاجة؛ ليموت. هكذا كانت طريقة إعدامهم بالتجميد والكسر. كانت من عادتها كل يوم أن تجلس بجانبه وتحضر له شيء جديد لو يصلح من حطام السفن

ولكن ذلك اليوم هو الذي تغيرت فيه حياتها إلى الأبد عندما أحضرت دمية صغيرة فانتفض صارخًا وقال:

- ما هذا أيتها البلهاء؟
- ماذا فعلت؟ وكيف تخاطبني بهذا الشكل؟
- لقد مللت منك، فأنا لم أعد أطيق هذا الحبس أريد ان أخرج من هنا.
- هل تقول إنك مللت حبي؟
- لم أكن أحبك لكي أملَّ أيتها البلهاء المدللة.
- احترم نفسك مرة أخرى، وإلا فسوف أخبر والدي بما فعلت.
- لن تجرئي فبعد ما فعلت بهم، هل تعتقدين أنهم سيصفحون عنك ويعيدونك إلى أحضانهم؟

نظرت إليه نظرة المستغرب المتفاجئ، وقالت:

- اخرج أيُّها الكريه من مخدعي لا أريد أن أراك مرة أخرى، لقد كنت ساذجة لأضع رجل فوق معزة أهلي، صحيح لن يجد جحفل أكثر حبًا من والديه، والباقي فلا.

خرج من مخدعها ولكنه لم يخرج من القصر فقد اختبئ في مكان لا يراه فيه الجحافل وانتظر هناك إلى أن شعر أن الجحافل قد غرقت في السبات، عندها تسلل الخائن إلى مخدع والدي الذي كان دائمًا قبل

أن ينام يضع الخاتم بين طلاسم من السحر، حتى لا يستطيع أحد مسه. فهي تحتاج إلى طاقة لإعادة شحنها.

الذي لم يكن يعلمه أبي أو أي من الجحافل المائية أن الخائن كان في مهمة، وأنه لم يأت إلا لأداء مهمة وحيدة ألا وهي الاستيلاء على هذا الخاتم.

وبلمح البصر سرق الخاتم، وقراء الطلسم الذي جاء وهو يحفظه فحوّل والدي إلى تمثال من الثلج، وقبل أن تصرخ والدتي حول الخاتم نحوها وجمدها هي الأخرى، وفي هذه الأثناء دخلت أختي الصغيرة لتجد أن أبي قد كُسر.

صرخت صرخة مدوية حتى أنه أغلق أذنيه بيديه عله يتفادى الصوت الذي يصم الأذان، فحاول أن يصوب الخاتم نحوها فتسمّرت دقائق، ولم تعلم ماذا تفعل، من هول المفاجأة، ولكن، لحسن الحظ، استطاعت أن تهرب، وقبل أن يكمل تعويذته اختفت.

لم يهتم بالأمر كثيرًا وذهب مباشرة ودخل إلى حيث الجيش دخل بكل برود وقال:

– من الآن وصاعدا سوف تطيعون أوامري.

في بداية الأمر بدأت السخرية والضحك من كل الحضور، وما إن تقدم قائد الجيش حتى يلقنه درسًا أخرج خاتمه، ورفع قبضته، وتمتم بكلام غير مفهوم، وفي دقائق معدودة حتى أصبح قائد الجند في

القمقم. كان الخوف والرهبة يسيطران على المشهد، ومع هذا حاول بعضهم أن يفعل شيئًا للدفاع عن وطنه، إلا أنهم لم تكن لديهم آلية دفاع للتغلب على خاتم الملك الذي اغتصبه، وأصبح ملكه الآن، فأصبح كل معارض حبيسَ القمقم، عندها لم يكن من الآخرين سوى الرضوخ لأمره وطاعته، خوفًا من تلك الكلمات التي ما إن يتلوها حتى تتحول حياتهم إلى الجحيم؛ فإما التجمد أو الموت أما أسوؤهم هو الحبس داخل القمقم فما إن يفكر فيها الجحفل حتى يشعر بالخوف فداخلها ترى الحياة تسير وأنت محبوس دون أن يستطيع المشاركة فيها لا يستطيع فك حبسك إلا من وضعك فيه إما أن يصفح عنك وإما ينساك إلى الأبد.

ورغم ذلك حاول العديد من الجحافل البواسل أن يقيموا العدل فكانت تقوم ثورات، ولكن كان قمقم لهم بالمرصاد، ولكن مع مرور الوقت، ولأن الأمر لا طائل منه فقد شعروا أنهم لن يستطيعوا هزيمته وأنهم يخسرون أرواحهم بغير فائدة أو تغير يذكر فرضخ الجميع تدريجيًا خصوصًا أن الملك أغدق عليهم بالملذات، فنسوا الحرية، وانغمسوا فيها.

هكذا كانت الحياة قبل أن يأتي ذلك الحشرة، هل تعلم أنت وملكك الغبي أنها عادت، لقد تسللت إلى عالمنا مرة أخرى وهو من غبائه لم يعرف الفرق.

استدار القائد وصرخ بانفعال قائلًا:

- اليوم يوم الاحتفال هيا لنحتفل أيُّها الجحافل؛ فاليوم يوم تحررنا لقد انتهت أيام عبوديتنا إلى الأبد.

وفعلًا بدأ كل واحد منهم منتشيًا وفرحًا، كأنهم حققوا النصر في معركة.

التفت القائد إلى المستشار، فقد كان متسمرًا في مكانه لا يعلم ماذا يفعل، وصرخ:

- الآن يمكنك المغادرة، ولا تنسَ ما أخبرتك به. لكم شهر فقط لتهربوا كالجرذان، وتعودوا من حيث أتيتم.

خرج المستشار وفي عقله آلاف الأسئلة: من هو الملك؟ وهل ما أخبره به القائد صحيح؟ وأين الخاتم؟ وماذا يفعل بتهديد قائد الجحافل؟ وماذا عليه أن يفعل؟ هل القائد هو من قتل الملك؟

***

الفصل الرابح..

السماسرة..

عاد المستشار مع المؤتمن وجلسا في غرفة الملك، وأغلقا الأبواب عليهم، وطلب من الحراس أن لا يدع أحدًا يدخل عليهم فهم إلى الآن لا يعرف ماذا يجيبهم وأيضا يريد أن يرتب أفكاره أكثر، فقد شعر أن الرحلة لم تشعرهم بأي طمأنينة فقد عاد وفي جيبه العديد من الأسئلة وشعرور بالتهديد فلم يعلم أين يذهب هو وقومه، ولا يعلم وما هي الخطوة التالية؟ أيستسلم للأمر ويخرجوا إلى السطح لن يستطيع أن يقنع أحدًا بذلك؛ خصوصًا بأن الخروج هو الموت بعينه فالنصوص المكتوبة في كتاب المقدس تنصُّ على أن العيش في العالم الخارجي هو أصل كل الشرور، وان كل من يستنشق هواءه سوف يُلوث ويتحول إلى إنسان غير طاهر مخلد في النار، فحتى هذه الفكرة لا يستطيعون حتى التفكير فيها ولن تنصاع له الجموع لم يعلم ماذا يفعل نظر مباشرة إلى مؤتمن وقال:

- ماذا تعتقد أن الملك لو أنه في هذا الموقف سوف يفعل؟
- سوف يتبنى الدبلوماسية.
- وما هي؟
- أن تصور للعدو أنك متفق معه، ولكن في حقيقة الأمر أنت تتمنى إبادته.
- أيعقل هذه الدبلوماسية؟ أم هذا النفاق؟!
- إنه نفس المعنى أيُّها المستشار، دعك من المعنى الآن أريد أن نشكل خطة آمنة للخروج من هذه الورطة.

- نعم أعلم، ولكن فكرة الخروج من القبة ليست واردة أبدًا.
- يجب عليك - أيُّها المستشار - إذا أردت الحل أن تتكلم مع كبير السماسرة.
- نعم كيف لي أن أنساهم، ولكني لم أشاهدهم في جنازة الملك وأعتقد أنهم لهم يد لقتله.
- لا أعتقد فقد كانت حياة الملك بالنسبة ذات مكاسب لا تحلم أنت فيها، أتريد الحقيقة - أيُّها المستشار - أتستطيع أن تتحمل الحقيقة العارية دون أي تجميل.
- نعم، أكيد.
- الملك الذي تتبعه ما هو إلا نصاب شخص نصاب مخادع.

لم يكمل كلامه حتى تفاجأ مؤتمن لهجوم المستشار المباغت فقد نهض من مكانه، ودون أن يشعر إلا وقد انهال بالضرب عليه، لم يعلم كيف خرج منه هذا الغضب، ولم يتوقف حتى فقد وعيه بين يديه عندها شعر بالسوء، فحمله بنفسه إلى السرير وطلب من الطبيب أن يشرف بنفسه على علاجه.

استمر الحال ثلاثة أيام فقد استعمل المستشار من غير وعي منه الآلة الكاتبة الخاصة بالملك، وما إن أفاق حتى اقترب منه وقال:

- اعذرني وسامحني على ما بدر مني حتى أنا تفاجأت من هذا الغاضب، فلم أعرف كيف خرج كل هذا العنف أنت تعرفني جيدًا أرجوك لا تغضب مني.

مد يده ناحيته وهو يبتسم له:

- لا تقلق أنا أعرف معدنك جيدا، وأعلم أن الأمر خارج عن سيطرتك دعنا نمحي الماضي (قالها مبتسمًا).

شعر بارتياح أخيرًا بدأ شيئًا فشيئًا يسأل مؤتمن ولكن هذه المرة بصبر أكثر وأكثر تقبل، فقد شعر أنه لا يعرف الملك حق المعرفة ويجب عليه إن أراد أن يصل إلى الحقيقة يجب عليه أن يستمع إلى جميع الأطراف حتى وإن كان الطرف الآخر لا يتوافق مع هواه عندها سأل مؤتمن مباشرة:

- هل تعتقد حقًا أن الملك مخادع.

تردد قلقلًا ثم قال:

- أرجو أن لا تغضب مني، ولكن هذه هي الحقيقة، اسمع مني إلى الآخر وبعدها تستطيع أن تقرر وتحكم بنفسك. مذكور في الكتاب عن أننا الأمة الناجية الخالدة ألم تفكر في الناس الذين يختفون من هذه القبة أين يذهبون؟ وماذا حصل لهم، لقد صدقت ترهات وكذب ذلك المدلس، لقد كنت الشاهد على كذبه فقد ساعدته مرات كثيرة لتخلص من جثث الذين ماتوا فقد علم أنه لا يستطيع أن يخفي الأمر والجريمة وحده فقد أراد يد معاونة له، وكنت أنا البائس المختار لقد شعرت بالغثيان، وحاولت أن أنتحر عدة مرات، ولكن كان لي

بالمرصاد كنت أرى نفسي كالسمكة التي نأخذها من بيئتها لنضعها زينة، هي حزينة لوضعها ونحن سعداء بمنظرها لم تفكر يوما ماذا تخفي الأسماك؟ وهي في هذا الحوض تسبح؟ نعم لسنا كما تعتقد مخلدين. أذكر ذلك اليوم الأول الذي رافقته فيها لتخلص من أناس، أتذكره ذلك الفتى المرح الذي اختفى فجأة لقد ساهمت أنا في دفنه عندها انهدمت كل معتقداتي، لم أستطع الكلام لأني كنت جبان خائفًا.

- لا تقل ذلك أنت وضعت في ظروف لم تعلم كيف تخرج منها. لو أن أي انسان وضع في ذلك الوضع لفعل مثلما فعلت.
- أتعتقد؟؟ فأنا أشعر أني خنت الجميع.
- لا لم تخن أحدًا فها أنت ما إن وافتك الفرصة لم تفكر وأنت تحاول الآن فعل الصواب ألا وهو قول الحقيقة.
- سوف أخبرك أمرًا رغم أن كل شيء يقسم بالتساوي ورغم المقالات المكتوبة من قبل الملك أننا في عالم متساوٍ ديمقراطي إلا أن حقيقة المجتمع ابعد ما تكون من ذلك فهو حقيقةً مقسم دون أي تفسير إلى ثلاث فئات من الناس، كل منها منزلة الخاصة، ودوره ومكانه فالفئة العليا أتعلم أن السماسرة هم المقربون من الملك؛ لقبوا بذلك لأنهم الصلة والوسيط بينه وبين العالم الخارجي. فهم الوحيدون الذين لهم حق الخروج من القبة، وهم الوحيدون الذين يعتبرون ساكنين

مؤقتين في القبة يأتون في مواسم معينة، وعند الأعياد، فقط لإتمام المراسم مع الملك هؤلاء القوم مهما بدر منهم تشعر أن الملك لا يستطيع مخالفة أمرهم أو عدم تنفيذ طلباتهم.

- أعلم كيف يتصرف الملك معهم، ولكني لم أعلم مدى قوتهم وسيطرتهم على الملك.
- هم أكبر مجرمين سحرة قساة القلب لم تشاهد ما يفعلوه بالقسم الآخر من القبة، هل تعلم أن هناك قسمًا آخر وأشخاصًا يتاجر بهم، هناك تحدث أمور قذرة، لا تريد أن تعلم عنها؟ أطلب منك إذا أردت أن تذهب إلى هناك لتراه بعينك.

قاطعة الطبيب، وطلب منه الرحيل فقد بذل المريض أكثر من طاقته لليوم، وهو حاليًا يحتاج الراحة، خرج معتذرًا، ولكن لم يمهله الناس فقد تجمعوا حوله متسائلين يريدون أن يعلموا ماذا يحدث وطلبوا باجتماع معه فوافق، ولكن بعد أن يرتاح قليلا فقد تذكر أنه لم ينم، وهو يلبس الملابس نفسها التي أرتداها في جنازة الملك شعر بأن جسده سوف ينهار فدخل إلى مخدعه وأخذ حمامًا ساخنًا وما إن شعر جسده بالفراش حتى نام وجسده يقطر ماء.

استفاق في اليوم التالي ليجد أن القوم كلهم في انتظاره فباشر بالقول ما حصل ولكن أخفى بعض التفاصيل وقال بعد أن انتهى أمر آخر أيُّها السادة سوف يقام تحقيق يشمل الجميع.

نظر إليه أحد الجالسين وعندما سمع الكلمة الأخيرة نهض وقال:

- هل تتهمنا بشيء أيُّها المستشار.
- لا، ولكن هذا إجراء روتيني فقط فنحن نريد أن نعرف تحركات الجميع في ذلك اليوم.
- إذًا أنت تتهمنا!
- لم أقل ذلك، ولكن يجب أن نحقق العدالة ونطبق القانون.
- ومتى سوف يتم ذلك سوف نقوم بجدولة مواعيد المقابلات ونعلمكم بها هل لديكم أسئلة أخرى.
- ماذا نفعل الآن؟
- سوف نستمر في العيش كما كنا إلى أن تتضح الرؤية ونعرف الحقيقة وبعدها كل إنسان سوف يكون له الحرية في اتخاذ قراره.
- وهل لنا قرار؟! فبعد موت الملك لا نعرف ماذا نفعل؟ ومن نسأل عن أمور حياتنا فهو الوحيد الذي كان يعلم كل شيء ويجيبنا عن أي شيء نحتاجه وبعد أن فقدناه (بدأت المرأة بالبكاء) لا أستطيع العيش بدونه فهو محور حياتي كلها.

تحولت القاعة إلى نحيب وولولة فشق صوت أحدهم القاعة، وقال:

- سوف نقطع من فعل ذلك إربًا إربًا لن نرحمه ذلك المجرم.

- أرجوكم أن تهدؤوا.. إن موت الملك لا يعني موتنا نحن، وصدقوني، وأقول لكم مرة أخرى، لن يهدأ لي بال إلا بالإمساك بالمجرم لكي يأخذ جزاءه.

كان العويل يرتفع، ولم يستطع المستشار تهدئتهم، فخرج من المكان فقد شعر بالضيق، ولم يرد أن يشاهده أحد وهو منهك فتمالك نفسه، وما إن وصل غرفة مؤتمن حتى أجهش بالبكاء فقد شعر أنه الوحيد الذي يفهم معاناته عندما انتهى واستعاد رباطة جأشه قال وهو ساهم:

- هل تعلم ما الذي يغضبني؟ إنها الحيرة فقد كانت حياتي سهلة ليس بها أي تعقيد روتين مريح، تعلم ماذا سيحصل غدا واليوم وبعد غد حتى الطعام تعلم كل يوم ماذا سيقدم لك سلب منا ذلك وتركنا للمجهول ماذا سيأتي غدًا ولا حتى في الساعة القادمة.
- أتعلم أنها قمة التحرر - أيُّها المستشار - أن تكون في ذلك المجهول فأنت بذلك تستطيع أن ترسم ما تريد، وليس كما يريد الناس أيها أجمل لوحة ترسمها بألوانك المفضلة والأشكال التي تحب أم لوحة تأتيك لتعلقها فقط لا هي من ذوقك ولا تصف ذاتك، هذا الفرق بين حياتنا مع الملك وحياتنا الآن.

تأمل كلامه كان صحيحا فهدأ من روعه، وجلس معتدلًا وقال:

- أريد أن اطلب منك طلبًا.
- أي شيء لأجلك.
- أريد منك أن تحضر معي الاجتماع مع قائد السماسرة.

كان يمسك بكأس الماء، وعندما قال جملته سقط الكاس من يده، وبدأ يرتجف، وقال بصوته الذي سوف يبدأ بالبكاء:

- أرجوك كل شيء إلا هذا، فأنت لا تعلم من هم هؤلاء المجرمين لقد أخبرتك ألم تصدقني؟!
- نعم، ولكن يجب أن أجتمع بهم لتوضيح بعض الأمور والتحقيق معهم.
- وهل تعتقد أنهم سينفذون أوامرك هكذا؟!.. انتبه خصوصا، قائدهم فهو المكر بعينه.
- لا تقلق عليَّ أنا أعرف كيف أتعامل معهم.
- إن الرجل الذي تراه من بعيد في المراسم غير حقيقي أنا رأيت حقيقة هذا الوحش أرجوك لا تقرب منه.

خرج من عنده وهو متضايق ولكن كان شرًا لا بد منه، فما إن عاد إلى مكتب الملك الذي أصبح الآن مقر التحقيقات خط رسالة تطلب من قائد السماسرة الحضور للاجتماع والتباحث حول مصير القبة عله يساعده في هذه المعضلة. عندما انتهى سلم الخطاب إلى أحد الجنود وطلب منه تسليمه يدًا بيد.

عندما حضر شعر المستشار بالارتباك، فعندما أصبح تقابلًا شخصيًا شعر بالهيبة والخوف وعدم الارتياح في آن واحد، فقد كان رجلًا ضخمًا مترهل الجسد ذا ذقن مربع وفك يستطيع أن يفتت فيه الحجار صارم القسمات لديه عينان زرقاوين، ورغم جمالها لكنها نظرة خالية من المشاعر، وكأنك تشعر أن لا روح فيها، أما أنفه فكان مدببًا طويلًا ذا فم صغير ضيق، تحت طبقات الشحم اختفى عنقه يخلو رأسه من الشعر تقريبا إلا من بعض شعيرات متفرقة تحاول أن تلتقي ببعضها دون فائدة يسير بشكل أعرج وبمساعدة عكازات من وزنه الثقيل، فارتبك ولم يعرف من أين يبدأ، فظل ساهمًا مدة من الزمن تملل السمسار، ولكنه انتظر فقد أراد أن يعرف ما في جعبته فانتظر بصبر إلى أن بدأ وأخبره ما حصل مع قائد الجحافل، ولكنه لم يخبره كل ما يعرف، وعندما انتهى من سرده، قال وعلامات الحيرة بادية على وجهه:

- ماذا نفعل الآن أيُّها القائد؟ فقد قتل الملك، كيف لنا أن نعيش هنا، ونحن مهددون فقد وجدت أن الجحافل يبحثون لنا عن زلة؟ لم نفكر بهذا اليوم أبدًا.
- لدي الحل.
- ما هو؟ أخبرني به أرجوك.
- يجب أن نعقد تحالف مع الجحافل، بطريقة أو بأخرى.

- كيف لنا أن نتعاهد معهم، وأنت تعلم أننا كنا السبب في تدميرهم فهم يرونا العدو.
- نعم، ولكن هناك ورقة في صالحنا.
- وما هي؟
- نخبرهم بأننا وجدنا الخاتم، فهم يعتقدون أنه ضاع، ولكن إن أخبرناهم أننا وجدناه وسوف يكون في حوزتنا ولن نستخدمه ضدهم بشرط أن يتعاهد معنا على يدعونا نعيش في سلام تحت سقف القبة.
- ولكن إن سأل أحدهم بأنه يريد رؤية الخاتم ماذا نفعل؟
- لن يجرؤ على ذلك فمجرد الكلام عن الخاتم يرهبهم.
- أنت على حق فقد كان تأثيره سيء عليهم.
- ولدينا ورقة أخرى رابحة.
- وما هي؟
- ابنتهم.
- أتقصد التي تزوجها الملك.
- نعم هي بعينها نحن نعلم أين هي فقد شنت هجمات عديدة على الملك، وحاول الملك البحث عنها، ولكنه لم يستطع أي منا العثور عليها، فقد ذهبت في انتقامها، ومحاولة الاقتصاص من الملك إلى أبعد الحدود في السحر والقوة. كانت في آخر الأيام تتوعد، وفعلًا لقد صددنا في السنوات الأخيرة هجمات

منها وبطريقتنا علمنا أين تختبأ الآن، ولكن نحن لسنا مجهزين للإمساك بها.

- لكن، كيف سنستفيد من مكانها؟
- سأخبرك بعد أن ألحقت العار بأبناء جنسها أهدروا دمها، ومن يأتي إليهم بها سوف يُعطى مجوهرات تمثل ثروة هائلة، وهي كما تعلم تهديدٌ لحكم القائد الجديد، فهي الأولى بالعرش؛ رغم نبذها فقد تحولت قدرات الملك إليها شاء أخوها أم أبى إذ إن الحاكم يكون للمولود الأول سواء أكان ذكرًا أم أنثى، وإذا ظهرت سوف تحكم المحيط بأسره وهذا لا أعتقد أن القائد الجديد سوف يسره الأمر يجب عليه قتلها ليتمكن من نقل القوة إليه، وإلا فسوف يكون بنظر الجميع نصف قائد.
- أتعتقد أنه سوف تنجح الخطة؟

ابتسم بدهاء وقال:

- أنت لا تعرفني جيدًا فالعهد سوف يوقع لا تقلق فقط أريد منك أن تجهز نفسك أنت وتذهب إليهم مرة أخرى.
- أرجوك أرسل شخصًا غيري يقوم بالمهمة فقد كادوا أن يفتكوا بي المرة السابقة.
- لا تقلق سوف نحميك.
- وكيف؟

- لا تقلق بالتفاصيل فقط أريدك أن تجهز نفسك.
- هل لي أن آخذ معي مؤتمن؟
- لا...
- ولم لا؟!
- نريده هنا معنا.

شعر المستشار بأن هناك أمرًا غير مريح عندها ألح الطلب وقال:

- سيدي القائد أنا أريد مؤتمن فهو الوحيد الذي يستطيع مخاطبتهم فقد اكتسب اللغة من رحلاته مع الملك فهو سيفيدنا في الحوار معهم والتواصل.

كانت ملامح القائد غاضبة بعض الشيء، ولكنه في النهاية قال:

- أخبره أن يستعد إذًا.
- شكرا أيُّها القائد، سوف أذهب حالًا وأعلمه بالأمر.
- اعلم - أيُّها المستشار - يجب عليك بشتى الطرق أن تجعلهم يوافقون على المعاهدة، فإن فشل الأمر سوف نفقد حليفًا قويًا لنا في هذه القبة، وسوف نخسر تلك اللآلئ والمجوهرات المستخرجة من المحيط. تعلم أنهم لا يعلمون أنها قيمة، فهم يعدونها أحجارًا فقط، أغبياء!.
- لقد كان الملك قاسيًا معهم، ونحن الوحيدون نعلم بحقيقته.
- أرجوك اكتم هذا الأمر، واجعله سرًا بيننا أفهمت؟

- نعم أكيد لا تقلق وحتى إن أخبرتهم فهم لن يصدقوا أي شيء يمسُّ سمعه الملك.
- اعلم أن السيطرة على الأشخاص لا تحتاج إلى تلك القسوة والعداوة التي كان يظهرها الملك للجحافل، كان في معاملته يريد أن يثبت شيئًا ما لا أعلم ما يكون فتعالى عليهم وألزمهم مالا يطاق، ففشل في ربط علاقة طيبة معهم، ورغم انه يملك الخاتم فقد كانت تقوم هنا وهناك بعض الشغب، فيخسر كل من الطرفين أحد أعضائه وفرقته كنا دائما نحاول عدله عن هذا المسار ولكن الأرباح التي كنا نجنيها من سكوتنا ومجارات غبائه كانت أكبر من أن أرفضها.؟

***

الفصل الخامس..

الخديعة..

عندما انتهى من الاجتماع، ورغم تأخر الوقت، ولكنه شعر أن عليه أن يخبر مؤتمنًا عن ما دار بينه وبين قائد السماسرة، فهو المناسب للعب دور المستشار، وليس هو ذهب إليه وقال:

- احزر ما ذا حصل؟
- أخبرني...

وبدأ بسرد ما حصل كاملًا دون أن يخفي عليه شيئًا، وعندما انتهى من حديثة قال:

- أفكر أن أشرك الملكة في التحقيق.
- تريد نصيحتي؟
- طبعا، أكيد.
- اسمع منها، ولا تخبرها كل شيء.
- ولِمْ؟
- سوف تعرف عندما تجلس معها وتقابلها.

قام وذهب مباشرة إلى مخدع الملكة، واستأذن بالدخول، شعر أنها كانت في انتظاره، ومستعدة جيدًا لهذا اللقاء. جلست في غرفة الاستقبال بعينين متفحصتين منتصبة الجذع تنظر بين الفينة والأخرى إليه كان دائمًا مبهورًا بجمالها رغم اختلافها عنهم بلونها الشفق الذهبي مصقولة القوام تفتن كل من ينظر إليها، رغم لمحة الحزن التي تبدو عليها دائمًا كانت تجيب بكل صراحة، وتثبت ما قاله له قائد الجحافل أنه صحيح تمامًا وأردفت في حديثها وقالت:

- لقد أخبرتك أنه حان وقت الرحيل، يجب أن نصعد إلى الأعلى.
- ولكن هذا عالمنا، لقد ولدنا هنا، وحتى أجدادنا كانوا هنا.

قاطعته الملكة وقالت غاضبة:

- غير صحيح، نحن ننتمي للأعلى.
- ألا تعلمي ماذا في الأعلى؟ قد نموت هناك ألم تقرئي الكتاب؟
- بلى، ولكني الآن أريد منك أن تفتح قلبك، وعقلك - أيها المستشار -. أعلم أن الأمر صعب التصديق، ولكن لقد كنا فئران تجارب لذلك المعتوه.

ارتفع صوت المستشار، وقال بغضب:

- لا تقولي ذلك. كيف لك أن تقولي هذا الكلام عن الملك؟! أعلم أنك لم تكنّي له الاحترام، ولم تتفقي معه، ولكن نعلم سويًا أنه اختارك من بين كل الفتيات. أنت الفتاة التي أتت لتكون بجواره ملكةً لهذه القبة.
- لقد اختارني الملك لصفات لم تكن أنت ولا أحد من أهل القبة يعلمها غير القريبين منه. ألم تستغرب لون بشرتي السمراء؟!. وملامحي الشاذة عنكم! لقد اخترت بعناية لذلك الحقير. لقد كانت دمائي هي الوحيدة التي يستطيع من خلالها الشفاء والرقية والتقرب إلى أنصاره السماسرة المافونين

- هل لديك الوقت لتسمع قصتي؟
- نعم أكيد كل الوقت يا سيدتي.
- ولا تحكم إلى أن تستمع لي إلى النهاية هل تعدني بذلك؟
- أعدك هذه كلمة شرف أقولها لك.
- لقد كنت من سلالة معروفة من الساحرات في الوسط الإفريقي معروفين بقدراتنا القوية فسحر الفودو قوي ولا يستطيع أيًا كان الدخول في هذا المجال إلا إن كان ذو قدرات غير طبيعية، أتى إلينا في يوم من الأيام وعرّف عن نفسه لم أعلم ماذا يريد، وما الحديث الذي دار بينه وبين والدتي، ولكن في اليوم التالي جهزتني بثوب أحمر مطرز بالخيوط الذهبية رمز الفرحة والسعادة والرقي في قريتنا، ولكن لا أعلم عندما ارتديته شعرت أني أرتدي كفنًا لا ثياب عرس، فاللون الأحمر رغم أنه شائع لدينا أنه للفرح، ولكن أنا أراه أنه لون الدم، وشخصيًا أنا لا أحبه وأتشاءم منه.. عندما انتهينا سلمتني إياه هكذا وبلا أي تفسير كانت والدتي طوال الوقت تبكي وتمسد شعري وتقول:
- سامحيني فالأمر أكبر من استطاعتي.
- لن أنسى كلامها ما حييت، وبعد أن عشت معه علمت الغاية من هذا الزواج فلقد أبقاني الملك عنده أتعلم لم كانت تتكلم وهي تبكي بحرقة ولكن شعر أنها تتحرر مع كل كلمة تقولها فقد كتمتَ السر طويلًا.

فشجعها على الكلام وقال:

- أرجو منك أن تخبريني.
- لأنه يريد مني أن أكون الاحتياط، والوعاء الحامل لبذرته. فاختلاط دمي ودمه كان نبوءة أنه سوف ينجب من يحكم هذا العالم، ويقلبه رأسًا على عقب.

ذلك الملك المعتوه، وبسقت في الأرض، وقالت:

- لقد تحررت منه، والآن أستطيع أن أعود إلى أهلي وأبقى فيها إلى أن أفنى، لقد تحررت أيُّها المستشار أفهمت أيُّها التابع الغبي.

لم يستطع تمالك نفسه عندما سمع ما قالتـ وتملكه الغضب، وقام من مكانه وقال:

- هذا رأيك الشخصي إذا أردتِ فافعلي ما تريدين أما الأمير فحكاية أخرى، الوصاية على الأمير يجب أن تقرر من قبل القادة.

كانت الملكة تهتز من الغضب والحزن وهي تتحدث. ومضت تقول:

- ابني ليس لأحد وصاية عليه. أنا والدته، وأعرف الناس به. ابني سوف يلازمني. فهو النبوءة، ولا يجوز أن يرعاه غيري.

- ابنك ليس ملكك أنت فحسب، إنه ملك القبة بأسرها؛ لذا الرجاء ألا تتدخلي في أمر لا يعنيك.

ضحكت الملكة بمرارة، وتساءلت بدهشة:

- ابني لا يعنيني؟ وهو الأمر الوحيد الصافي والطاهر الذي خرجت نتج من هذا الارتباط الآثم. لن أدع أي أحد يتحكم في حياتي وحياة ابني بعد الآن. على جثتي، لن أدعه لكم، أرجوك دعه لي، وسوف أخبرك كل الحقيقة.

عندما شاهدها منكسرة منهارة بهذا الشكل عاد إلى هدوءه وقال:

- سوف أعدك بأمر آخر، إذا سمعت القصة كاملة سوف أحدد ما إن كان الأمر يستحق أم لا؟
- أرجوك إن الملك قد مات، وأنتم لن تستطيعوا الصمود في وجه الجحافل أرجوك دعني أغادر أنا وابني.
- ومن قال لك أن القبة سوف تزول إننا نعمل على جعلها باقية.
- إذا لم ينقلب الجحافل سوف ينقلب عليهم جماعة آخرين.
- ومن هم؟
- تريد أن تعرف أعطني الأمان، وحررني أنا وابني.

شعر أنها المفتاح، ويجب أن يأخذ منها القصة كاملة فأعطاها العهد والأمان فأكملت وهي مرتاحة:

- الجميع لا يعرفون بقية القصة. لم يخترني الملك لأجل النبوءة فقط، ولكنه تزوج بي لأنه يخاف من شعبي أيضًا. نعم يخاف منا. لقد تزوجني ليضمن عدم قلب الحكم عليه من قبل المستضعفين فهم يأتون من قبيلتي أيضًا. فقد كنت أنا الوحيدة التي باستطاعتها قلب موازين حياته، ألم تسأل نفسك من أين يأتون هؤلاء القوم، ولم لا يوجد إلا قلة من النساء الخدم في القبة فقد كان الرجال يعملوا في الحرث وصناعة المعدات، وصناعة الأثاث الذي تجلسون عليه، ونسج الملابس التي تلبسونها، وحتى الفاكهة والخضار التي تأكلونها من تعبنا، ومن معاناتنا وجوعنا. استبحتم نساءنا وأطفالنا، لقد شعرت بعذابهم وحاولت تأييدهم ومساندتهم وقلب الحكم ولكني لم أفلح بذلك كان دائما الملك يسبقنا بخطوة. خطورتنا تكمن أننا الوحيدون في هذه القبة الذين شاهدوا العالم الخارجي بل الأصح سرقوا من العالم الخارجي، لقد أحسسنا بحرارة الشمس، نعلم ما هي الفصول الأربعة تغللت الأمطار وبللت ثيابنا ركضنا في الحقول وتغنينا بها أيضا شاهدنا الألوان الحقيقية، وليست الاصطناعية التي داخل القبة، أنتم – أيُّها المساكين – فقد روضكم ملككم على الطاعة. جعلكم في صندوق مغلق كهذه الأسماك التي تشاهدها لا يعلم أن هناك عالم أكبر من

هذا الحوض سلبت منكم حرية الرأي، وحتى التعبير. لقد كان الآمر الناهي. لا يوجد إنسان يفكر، ومن يفكر قد يقتل. وعندما يشاع الأمر يخبرونكم أنه عوقب بطرده إلى الأعلى نتيجة لأمر فادح والحقيقة أن الملك قتله.

اقتربت منه وهي منهارة لا تكاد تسيطر على دموعها، وقالت:

- لقد قتل شقيقتي. لم أكن أعلم أنها في القبة حتى شاهدت جثتها، أتى بها الحقير ليخيفني، وقد نجح، ولكني من الداخل أعرف أنها كانت بطلة شجاعة، فقد نظمت انقلاب هي ومجموعة من الشباب الذين ثاروا على هذا الوضع، أرادوا فقط أن يعيشوا ويعاملوا على أنهم بشر، ولكن ثورة بدون سلاح تقضي على الإنسان. حاصروهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم. منعونا من الحداد عليهم، ومنعونا من أن ندفنهم. هكذا قُتلت أختي، وإلى الآن لا نعلم لها قبرًا. هل تعلم كم كان عمرها.؟! لم تكن قد أتمت الثانية عشرة من عمرها. أنا أعلم أن ما أقوله صعب الاستيعاب، ولكن أريد أن أخبرك أني سوف أصعد وآخذ المستضعفين معي شئت أم أبيت. وعدم حضورنا تشييع الجنازة هو ثورة لنا، ولن نعود معكم، ولن نتفق معكم على أي شيء. هذا قرارنا، وإذا أردت أن تعرف من هو ملكك، دعه هو يخبرك بنفسه ذلك.

(ودفعت إليه مذكرات كان عليها اسم الملك وبخط يديه) وقالت:

- اعلم جيدًا ما بُني على باطل فهو باطل يا سعادة المستشار. الآن اخرج من مخدعي، أريد أن أرتاح.
- سوف أخرج ولكن سؤال أخير هل قتلتِ الملك.

لم تتغير ملامحها وقالت:

- كم كنت أتمنى ذلك، ولكن لا.
- هل لي بطلب آخر إذا سمحتِ.
- تكلم.
- أريد منك ان تأجلي أمر رحيلك إلى أن نحل القضية.
- هل هذا أمر.
- لا، إنه طلب يا سيدتي.
- لن أعدك سوف أفكر في الأمر أنت لا تعلم معنى الأسر وكيف الشعور عندما يكون المفتاح بين يديك.
- أعلم.
- لا، لا تعلم لأنك إلى الآن تعتقد أنك حر، ولكن إن فكرت جيدا سوف تصل إلى حقيقة أمرك.

فكرت قليلا ثم أردفت، وقالت:

- ولأن معي الآن المفتاح سوف أنتظر ذلك، ولكن لن أنتظر طويلًا.
- أشكرك يا سيدتي هذا كل ما أتمناه.

خرج المستشار، وهو في حيرة أكثر من حيرته الأولى، أجرى تضليله أم يا ترى هو على الطريق الصحيح لمعرفة الحقيقة؟ هل يريد أن يعرفها. لقد كان يكره وضعه الحالي، فهو لم يختر أن يكون مستشارًا، ولم يكن منصب المستشار في أيام الملك صعبًا. هو تنظيم أحوال المجتمع، والحرص على جعل الجميع سعداء، وفي راحة، ولكن هذا أكبر من طاقته، ماذا يفعل الآن. قرر أن يعود إلى مخدعه، عله مع قراءة المفكرة يجد الحل.

ولكنه كلف أحد الحراس بحراسة مخدع الملكة، ووضعها تحت الإقامة الجبرية، فبعد أن علم مدى كرهها للملك ورغم أنها أخبرته أنها لم تقتله، ولكن الآن أصبح لا يعتمد على تصديق الكلام يجب أن يجد ما يثبت براءتها من هذه التهمة، أصبحت هي وقائد الجحافل من المشتبه فيهم.

***

الفصل السادس..

ماضٍ أسود..

«ماذا لو تستطيع أن تخدع، وتسرق، وتقتل، وتفلت من العقاب، وتصبح في النهاية ملكًا، قصة سعيدة أليس كذلك؟!»

كانت هذه العبارة مكتوبة في أول المفكرة، وما إن قرأ هذه الجملة، حتى شعر بمغص في بطنه وشعر بالغثيان، وعلم في أعماقه أن ما سيطلع عليه شيء رهيب.

مذكراتي العزيزة

أعتقد أنه لا يوجد لديَّ عزيز غيرك، وها أنا أشعر أنك كالأم يجب أن أخبرها كل شيء، وأعترف لها بكل ذنوبي ليس لشيء، ولكن لكي أتذكر، ولا أنسى، لا أريد أن أنسى ما حصل، ولا أريد أن أنسى فإذا نسي الإنسان ماضيه كيف يحكم حاضره؟! فمنذ اليوم الذي قُذفت إلى الحياة، وأنا منبوذ. نبذتني والدتي خوفًا من العار، ورمتني عند أول منزل رأته، وهرب والدي، وأنكرني، ورفض الاعتراف بي. هكذا أتيت إلى العالم نكرة، لا يحبه أحد.

مذكراتي العزيزة

لازمني الجوع منذ ولدت، وأصبح أصبح عاديًا جدًا أن أنام دون طعام، لم يكن هناك أي طعام في القرية التي كنت أسكنها. الأرض جرداء بسبب الجفاف، والناس بؤساء يتعاقبهم الجوع ونقص المال، والمرض تركيبة تجعل من أعتى الرجال منكسرًا صدق من قال إن الفقر

يكسر الرجال، ولو كان رجل لقتلته. كل يوم تبتلع الأرض شخصًا أو أشخاصًا، حتى ألفنا الحزن. ومع هذا تستمر الحياة، كان علي أن أتدبر أمري. كنت أسرق في بعض الأحيان، أو أنهب من هم أكبر مني في السن. كان الناس يتجنبون الاقتراب مني لتهوري، وحبي للعراك والمشاكسة. كانوا يشيرون إليّ همسًا: ذلك الولد قبيح الوجه سيء السمعة وينصحون أولادهم وينهرونهم حتى لا يقتربون مني، وكأن بي مرضًا معديًا يصيب من يقترب مني في بادئ الأمر. صدقت أن هناك لعنة تصيب من حولي، ولكن عندما زادت وحدتي تحول التصديق إلى غضب، وزاد حنقي على الناس كم تمنيت أن يحبني أحد.. كنت أحلم بأم تخاف علي وأب يشاركني فرحتي ويعلمني مهنة أو صنعة، كنت أحلم بهم وأدعو وأبتهل كل يوم متمنيًا مجيئهم، ويخبروني أنهم متأسفون على ما فات وسوف يعوضونني عن الأيام التي عشتها من دونهم، ولكن طويت الأيام لم يأت أحد فعلمت أني تعيس حتى الدعاء خانني فلم يسمعني أحد.

مذكراتي العزيزة

الآن سوف أبثُّ حزني وألمي عليك فعندما كنت أعيش مع امرأة تصرُّ بأن أدعوها سيدتي. رغم علمي جيدًا بأنها خادمة وضيعة تقتات على مخلفات البيوت الثرية، لم تحبني قط.. كانت سيدة جافة المشاعر سيئة السمعة، ولكنها أمّنت لي المكان الدافئ، والطعام الجيد.. صحيح

أنها وجبة وحيدة في اليوم، وعلى الرغم من ذلك كنت أحبها بطريقتي الخاصة.. لم تحتضني قط وطوال اليوم وهي تنعتني بألفاظ سباب نابية واللعن المقيت.. ولكنّي حلمت بأنها في يوم من الأيام سوف تحبني إذا أطعتها، إذا وفرت لها ما تريد إذا حميتها من الناس، ولكن هيهات فطلباتها لا تنتهي ولا يرضيها أي شيء أفعله، لم أكن أهتم بالكارهين، كنت أقول لنفسي: ما دامت سيدتي تتنفس على قيد الحياة على الأقل أجد كائنًا حيًا يعلم بوجودي، لن أهتم إذا كرهني العالم بأسره. كنت لا أؤمن بأي شيء إلا المال والغذاء، ومتع الحياة. أي الأمور المادية الملموسة لم أفكر بما وراء الطبيعة أو الأمور الروحانية قط، ودليلي في الحياة اللامبالاة والعشوائية.

مذكراتي العزيزة

أخبرك الآن متى تغيرت حياتي، حدث ذلك عندما بلغت سن الرابعة عشرة عندما عادت سيدتي من العمل مهمومة صفراء اللون وآثار المرض والإرهاق بادية عليها، وعندما جلست على كرسي المجلس نظرت إلي مباشرة وقالت:

- أنت تعلم أني لم أحبك قط.
- أنا (بامتعاض): نعم، أعلم فقسوتك عليَّ تخبرني الكثير.
- إذن فلمَ لا تخرج من حياتي – أيُّها العالة المافون –؟

- وأين أذهب فلا يوجد لدي أحد ألجأ إليه؟
- إلى الجحيم.
- دليني الطريق، وسوف أذهب، فأعتقد أنك تحفظين الطريق جيدا.

كانت ولأول مرة تبتسم لي وقالت:

- أني أحتضر يا آدم أيامي معدودة في هذا العالم، ولا أعلم ماذا أفعل بك.

كانت تريد البكاء، ولكنها عادت إلى هدوئها وقالت:

- لقد توقفت أمك عن إعطائي النقود، وأنت كما تعلم نفقاتك وتربيتك مكلفة جدًا.

كنت من أعماق قلبي أضحك، أي مصروفات فقد كانت تطعمني رغيفًا واحدًا مرة في اليوم وملابسي مرقعة من كل مكان أي نفقات قد أحتاجها وأي نفقات تلك التي ترهقها.

أكملت حديثها قائلة:

- أنا الآن مريضة أحتاج إلى العلاج، الحقيقة أني كنت أبتز والدتك طوال هذه الفترة، ولكنها استطاعت بذكائها أن تنشر الأكاذيب عني، والآن لا أحد يطلب مني أن أخدم في بيته..

بهذه الكلمات وبكل بساطة كشفت لي سيدتي عن حقيقتها، لم أكن حتى أتخيل أن والدتي كانت ابنة تاجر المدينة تلك المرأة حسنة السمعة مطعمة المساكين وكافلة الأيتام تلك التي عندما تناديك باسمك لتعطيك حسنة تشعر بأنك شخص مهم.

سردت القصة كاملة دون تشفير أو مراعات لسني الصغير لم ترحم ذلك، وما إن انتهت من الحديث حتى قلت:

- أعطني عنوانها...

فجأة، وكأن الصحة عادت لها، ولبست جلبابها مرة أخرى وخرجت تدلني الطريق لا أستطيع وصف شعوري فقد كانت الأرض لا تسعني من الفرحة فإذا كانت تلك المرأة هي أمي الحقيقية فسوف أهنأ أخيرًا وأجد السعادة..

سوف أراها سوف تسعد برؤياي سوف أحضنها وأشتم رائحتها سوف أعانقها حتى تملَّ مني سيكون لي أخيرًا أمًّا وبيتًا وعائلة فقد كانت سيدة فاضلة حنونًا افتتحت دارًا للأيتام على حسابها الخاص، وهي بنفسها تشرف عليه، وتذهب إليه يوميًا ورغم أنها أيضا تلك المرأة التي كانت سببًا في أن أخرج إلى الحياة بوصمة لا أستطيع محوها؛ لإشباع غريزة للحظات معدودة. طرق الباب وخرجت الخادمة فطلبت منها سيدتي أن تناديها عندما دخلنا، وأتت أخيرًا عندما شاهدتها لأول مرة شعرت أنها خرجت من قصص الخيال جميلة عنقاء

بملامح شرقيه أصيلة بعينين واسعتين عسلية اللون كانت المفاجأة فقد وجدتها تحمل طفلًا بين ذراعيها كان سعيدًا بوالدته بدى عليها الارتباك عندما وجدتني مع سيدتي، وعندما حاولت الاقتراب منها أظن أني من الفرحة صرخت وأخبرتها بحقيقتي ومن أكون عندها أخذتها المفاجأة واقتربت كنت أعتقد أنها سوف تضمني إلى صدرها ولكن كانت المفاجأة أنها صفعتني صفعة أفقدتني توازني فسقطت أرضًا ولم ترحمني وجرتني من الساحة وأخرجتني من بوابة الدار حتى أنها لم تمهلني أن أخبرها ما بداخلي من لوعة وحرمان لم أستطع إلا أن أخبرها أني ابنها الذي رمته كانت تحاول في البداية أن تتمالك أعصابها ولكن ما إن تكلمت سيدتي حتى لجمت المفاجأة لسانها عندها تحولت إلى وحش وبكل برود العالم أخبرتني صراحة أنها بالفعل ارتكبت غلطة عمرها. وهددتني وقالت بصوت حازم:

- إن فكرت مرة أخرى بالمجيء سوف أنكر ما تقول وسوف أزج بك في السجن حتى تتعفن.. أفهمت؟

لم تكن هناك دموع، ولم يكن هناك ندم، وإنما كان في عينيها لمعة الخوف. كانت تتلفت من حولها خوفًا من أن يراها أحد مع ذلك الصبي الغريب، فيجر ذلك عليها مشكلات هي في غنى عنها كم لعنتها في داخلي، وكرهتها بالفعل، فأي أم هذه التي تتخلى عن ابنها بهذه البساطة؟ كيف سمحت لنفسها بالانزلاق؟

مذكراتي العزيزة

لا أخفيك أمرًا أيتها المذكرات العزيزة فبعد ذلك اللقاء قررت ألا أعود إلى هذه البلدة النتنة أبدًا.

في ذلك اليوم المنتن، وفي غمرة حزني وضياعي، وعندما سرت أيام لا أعرف إلى أي طريق سوف أذهب وماذا سأفعل هناك وفي غمرة حيرتي ويأسي ظهر لي ذاك الرجل الحكيم نظر تحت الشجرة، وما إن رفعت عينيَّ عليه حتى شاهدته يقف ينظر مباشرة إلي، وقال:

- هل لك وجهة تذهب إليها أيُّها الفتى أرى أنك مسافر وحيدًا
- لا لست وحيدًا أنا أنتظر رفيقي هنا ولدي وجهه وسوف أذهب معه إليها.

كنت خائفًا من نظراته، وأيضا خفت أن يضمر لي أمرًا ولكنه أخرج من صرته ماء باردًا وغداء ودفعه إلي فالتهمته التهامًا فمنذ أيام لم أأكل شيء على الاطلاق قبل أن يغادر قال لي:

- إذا أردت أن تصل إلى مرادك تعال إلي وسوف أدلك الطريق ما عليك سوى أن تتبع هذا الطريق ستجد منزلي على سفح الجبل.

ثم غادر.

مذكراتي العزيزة

لم تكن لي النية في الذهاب إليه، ولكن كانت جملته كفيلة بغرس الفضول لديَّ، فذهبت حيث المكان الذي أخبرني به، وما إن اقتربت من المكان حتى رأيته يخرج مرحبًا بي منزله أشبه بالقلعة على الطراز القوطي، ورغم مساحته الواسعة ترى الأتربة في كل مكان مكونه طبقة كثيفة على كل شيء تقريبًا، كان المكان النظيف الخالي من الأتربة هي المكتبة لديه من المؤلفات أعتقد أنها وصلت الآلاف، سمح الملامح أحدب الظهر كان دائمًا ما يلبس العباءة السوداء سواء في البرد أو في الحر كأنه يريد أن يخفي شيئا خلفها، يرتدي نظارة مقعرة تجعل من عينيه وكأنها مقعرات، رجل كأنه موسوعة متحركة يعرف جوابًا لكل سؤال، كان رجل واسع المعرفة حاد الذكاء. أخبرني باسمه وقال انه يدعى سيد الظلال، وأخبرني بقصة مغايرة عن القصة التي تعلمتها في الكتاب المقدسة عنه. فنزعت عني حجاب الدين، لم أعد أصدق ما يقال، إذ لكل شيخ فتوى ولا يوجد قرار واحد لماذا لا تكون الحياة أسود وأبيض أما الخط الرمادي هذا محير فعلًا. لم يكن هناك منهج، حرموا على الناس كثيرًا من المبيحات، وأرغموهم على ما لا يطيقون. خرجت مجموعة تستبيح دماء الناس وأعراضهم، فأنكرت ذلك ولم أعد أذهب إلى دور العبادة كنت أذهب فقط شكليًا لأن لا يقال عني هاجر وكافر والغريب أن الرجل الذي سكنت معه كان يصر علي أن أذهب حتى إنه في بعض الأحيان كان يطرق بابي لآتي معه لأداء

الصلاة صحيح أني لم أشاهده يصلي فعندما أستيقظ أجد نفسي الوحيد في المسجد أبحث عنه، ولا أجده ومع ذلك لم أسأله أين يذهب.

مع مرور الوقت لم أعد أهتم سوى بالحكيم وكتبه، فقد تقوقعت على نفسي، وأصبحت أجلس بالأيام في حجرتي.

كان الرجل الحكيم يظهر لي ليعلمني الحكمة ثم يختفي، بدأنا بالصيام وكيفية تطويع الجسد والتحكم فيه ليفتح بعدها الشاكرات واحدة تلوا الأخرى. كان يقول لي:

- آدم كم كنت أنتظر تلميذ مثلك يأتيني من سنين، وها أنت الآن معي سوف يكون لك شأن في هذه الحياة. فقدراتك تؤهلك لتحمل أكثر المراحل صعوبة.

كانت قدارتي بالفعل تتحسن بسرعة، وحتى إن طلبات الشيخ تزداد صعوبة.

مذكراتي العزيزة

اليوم هو اليوم الأول للذبح والتضحية وذلك لإرضاء أرواح الشيوخ السابقين، أنا خائف، ولكن لا أعلم، يجب أن أتحلى بالصبر لأرضي شيخي، وأصل إلى النهاية مهما كلفني الأمر.

مذكراتي العزيزة

ها أنا انتهيت من الطقوس اللازمة كنت في موقف أحسد عليه فقد فاجأني الشيخ وقال:

- إن أردت الرقي في هذا الطريق يجب عليك أن تضحي، هل أنت مستعد؟
- نعم (قلتها بكل حماس).
- بأي شيء يا آدم.
- بكل ما أملك.
- أنت لا تملك في هذه الحياة سوى روحك.
- سوف أعطيك إياها.
- أأنت متأكد.
- نعم.
- إذن أثبت ذلك.

وأعطاني الخنجر وكشف عن غطاء الطاولة فوجدت فيها طفلا مخدر أعادها مرة أخرى أي شيء نظرت إلى الطفل الذي لا يعنيني من قريب ولا من بعيد وأعدتها عليه وأنا أغرز السكينة في قلبه وقلت:

- أي شيء.

بعدها لا أتذكر ماذا حدث فقد أغمى علي، «الغاية تبرر الوسيلة» كما يقولون سوف يذهب إلى مكان لا شقاء فيه، لم يكن لدي أي مشكلة في ذلك، إذ إنني لم أشعر بانتمائي أبدًا لهؤلاء الناس الحاقدين، الذين لم يتورعوا عن إهانتي وتهميشي كلما تهيأت لهم الفرصة لذلك، فلم لا أنتقم منهم وأسقيهم التعاسة التي شربت كؤوسًا منها مدى حياتي؟ كنت أستطيع أن أوذي الناس، وكنت أشعر بالسعادة، لذلك لا أعلم لم؟ ولكني لم أشعر بأي تأنيب ضمير، ولم يكن هناك أساس ديني يردعني، إلى أن أصبحت في أعلى مرتبة.

مذكراتي العزيزة

طلب مني اليوم التضحية من نوع آخر. أتى إليّ الشيخ وهو فرح يقول:

- تقول البشارة: «لقد رضي الشيوخ عنك. حضّر نفسك للاختبار الأخير، وبعدها سوف تمتلك الكون».

كنت في قمة السعادة، وحضّرت نفسي للقاء، فأنا أعلم أن لكل مرتبة لها تضحياتها وقرابينها وكنت مستعدًا لكل شيء إلى أن وصلت المكان الذي طلب مني الحضور إليه، ووجدت والدتي الحقيقية ممددة وهي مخدرة فوق النصب، فعلمت أن هذا هو الاختبار الأخير.

كنت أرتجف من الخوف. أرتعش، ولكني وصلت إلى طريق لا رجعة لي فيه، فأخرجت سيفي من غمده ونحرتها.

وبذلك ولدت من جديد، وأصبحت أدعى أتوم، أي يعني (التام) أو (الكامل). إنه الاسم الذي كانت تلقبني به المجموعة السرية للمعلم، فقد كان لديه ثلاثة عشرة مريدًا اختارهم هو بنفسه، وكان يقول: «إن دماءنا هي الأنقى، والأجدر بهذا الطريق».

***

الفصل السابح..

.. إن لم تظهر إنسانيتك، فمن تكون؟

كان يقلّب الصفحات، وهو يشعر بالغثيان، كان ما يقرأه أكبر من أن من احتماله فقام من مكانه وأغلق مكتب الملك، وذهب إلى مؤتمن مرة أخرى، فهو يريد أن يشارك أحدًا هذه المعلومات، وإلى الآن لم يجد سوى مؤتمن، دخل عليه مخدعه بعد أن شفي تمامًا وأخرج من عنبر المستشفى أخبره بملخص ما قرأه إلى الآن وقال:

- متلهف للقراءة وخائف منها في آن واحد.
- الآن أصدقك كليًا اسمع (وبدأ بالقراءة):

مذكراتي العزيزة:

عند إتمامي التاسعة عشر بدأت الحياة تبتسمُ لي أخيرًا وأصبحت الحياة أكثر من رائعة فقد اجتمع بي الشيخ وقال:

- هل أنت مستعد للاختبار القادم؟
- أنا دائما في الخدمة سيدي...
- لقد جاءت الأوامر بأن تذهب كي تبشر وتنشر معتقداتنا ونشرها لكل العالم.
- ولكن هل تعتقد أن الناس مستعدون لذلك؟
- نعم، أكثر من أي وقت مضى.
- لمَ ذلك؟

- لأننا أصبحنا في زمن ضل الناس الطريق، وأصبح السارق يُكرّم والشريف يتم يُجرّم، الجهل أصبح فضيلة، وطلب العلم جنونًا، الدين يقاس الإنسان بماله لا بأخلاقه، فلا تخف فهذا الزمان هو زماننا اذهب ولا تخف.
- أمرك، ولكن ماذا سأفعل؟
- أولًا سوف تغير اسمك، وتتخذ لقب تقي الدين، وتخترع لنفسك تاريخ مثلًا أنك مريد علم، وأنك أتيت من بلاد بعيدة من سلالة علماء وطالبي علم.

وفعلًا نفذت ما أمر، فغيرت اسمي، واخترعت لنفسي تاريخًا، ونسبت نفسي إلى أسرة عالمة معروف عنها الزهد، واتباع العلم، بدأت بالقرى فهي المكان المناسب لزرع الأفكار واللعب بمعتقداتهم، فالفقر يولد الجهل، ويسهل خداعهم، فقط تظاهر بالزهد وأرهم الكرامات التي ما هي إلا حيل تعلمتها من معلمي الذي لو فكروا فيما أقول جيدًا لعلموا أني لا أتحدث عن كتابهم أبدا فقد خلط الحسن مع الخبيث، أمور كشفاء المريض وزيارة الميتين لأهلهم وتحدثهم معهم وغير ذلك من الأمور التي ما هي السحر بعينه، ولكن كانت أدعوها كرامات، فإذا أردت أن تخدع مغفل فاعرف ما هي نقطة ضعفه وتلاعب بها.

استطعت بمدة وجيزة أن أكسب ثقتهم، وكل هذا الفضل يعود لمعلمي الأكبر وشيخي المبجل، أذكر مرة وقعت في ورطة حيث إني كنت على علاقة بامرأة متزوجة كانت هي الوسيط التي بيني وبين نساء

القرية كنا دائما نتلاقى في مكان قصي بعيد عن القرية، فقد كان عند أطرافها بيت مهجور لا أحد يزوره أو يسكنه خوفًا من الإشاعات التي تدور حوله وفعلًا عندما دخلته أول مرة علمت أن هناك أمر شرير في ذلك المكان فاستأنست له وجعلته مخبئي أنا وعشيقتي، ولكن أتى زوجها ووقع علينا ونحن في وضع لا يحتمل معه أي تبرير كان، وبدأ يزبد ويرعد ويقول:

- أيُّها النجس الكاذب سوف أفضحك، سوف أخبر الجميع بحقيقتك أيُّها الدجال.
- انتظر لحظة دعنا نتفق.
- لا يوجد بيننا اتفاق، وهذه الحية خذها معك فهي طالق وتحرم عليَّ ليوم الدين، كيف استغفلتموني؟

ونظر إليها منهارًا ووقع على الأرض، وهو يبكي بحرقة وقال:

- لمَ أنا؟ لم أفعل شيئًا لكي يؤذيك، لقد حرمت نفسي الزاد لكي لا تشعري بالحرمان.

عندها وقف وهم بالخروج، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرمي زجاجة النبيذ على رأسه فوقع مغشي عليه عندها ربطته بمساعدة زوجته وتركناه فقد دنى النهار، ويجب علينا أن نعود أدراجنا فلا نريد أن يكشفني أحد، واتفقنا على أن نعود في المساء لنقرر ماذا نفعل؟ مارست حياتي العادية من إلقاء الدروس وعلاج المرضى، كان اليوم يمر بطيئًا

جدًا، ولكني لم أرد أن أخلف الروتين حتى لا يشك الناس في أمري، عندما انتهى عملي، وأغلقت العيادة، ذهبت مباشرة إلى المكان، ولكن كانت المفاجأة لم أجد الرجل فقد استطاع أن يحل وثاقه ويهرب بعدها بقليل أتت عشيقتي، وعندما علمت بالأمر انهارت عندها لم أعلم ماذا أفعل وكيف أجده، فاستعنت بمعلمي ليحل الأمر وفعلًا ما هي إلا ساعات ورأيناه فاقد وعيه مقيدا يطير في السماء، وما إن وصل إلينا حتى هبط نظر إلي المعلم وقال:

- هل تنتبه المرة القادمة؟
- أجل.. أجل.. فقط أخرجني من هذه الورطة.
- لك ذلك ولكن أنت تعلم لكل شيء ثمنه.
- وماذا تريد؟
- المرأة...
- خذها...

لم تستوعب المرأة إلا وهي مقيدة مرمية عند قدمي الشيخ ضحك وقال:

- اذهب الآن وأنا سأسوي الأمر، وإن سألك أحد عنهما فاخترع كذبة أعتقد أن هذا الأمر لن يعجزك اذهب الآن، ولا تنظر خلفك، أفهمت؟
- نعم...

وودعته وذهبت ولم أسأله من يومها ماذا حصل عدت من جديد إلى حياتي الطبيعية، وانتقلت إلى المرحلة الثانية من الحبكة ألا وهي الدخول إلى المدينة بعد أن أقمت في عدة قرى حولها، فأصبحت لدي قاعدة وجمهور.

السر في الأمر: لا تهزّ المعتقدات مرة واحدة، الأمر أن تبدأ بالتشكيك والنقاش بالأمور ذات الجدل وبعدها يصبح الفرد مهزوزًا لا يعرف ما هو الثابت في هذا الدين. تكلم عن العلم دون الخوض بالصانع، اخترع نظرية مفادها أن هذا العالم خلق صدفة كانت أنجح اختراعات المعلم فقد صدقها الكثير، يا لغبائهم!

دخلت المدينة لم أبدأ بخطتي إلا بعد أن درست المدينة جيدًا وعلمت أن رغم كثرة طلاب العلم إلا أن هناك فئة منهم مدعين العلم الشرعي الذي لم يؤلف في حياته كتابًا واحدًا ولم يتتلمذ على يد أي أستاذ إنما فضّل أن يأخذ العلم من مختصرات الكتب ويتكلم بأشباه الأحاديث، هؤلاء كانوا لعبتي كنت أحاججهم، ولأنه لا يوجد لديهم أساس في العلم تجد من السهل إفحامهم وتشكيكهم بالقضية التي يدافعون عنها، أذكر مناظرة بيني وبين شاب لم يتجاوز العشرين سنة يتشدق بالعلم وينشر له في كل الصحف المحلية كنت أترقبه، ووجدت الفرصة عندما اقترب مني صحفي يدعى عمر، لم أكن أعلم أنه مهتم بما أقول كان منجذبًا لسحر حديثي دعاني على للعشاء، وجلسنا بدأ الحديث وقال:

- سوف أدخل في صلب الموضوع يا أستاذ.
- تفضل قل ما عندك.
- أريد أن اطلب منك أن تقيم نقاشًا مفتوحًا مع الداعية الفلاني
- أستاذ عمر كما دخلت مباشرة بالموضوع سوف أدخل مباشرة بالسؤال أيضا، ماذا تهدف من هذا اللقاء؟

لم يكن يتوقع أني كشفت أمره بسهولة، فقال فقرب رأسه اليه وتكلم منحرجًا بصوت أشبه إلى الهمس:

- سوف أصدقك القول إننا نريدك أن تكون المتحدث عن توجهنا فقد كنا نتتبع أخبارك ووجدنك الأنسب ليكون المتحدث لقضيتنا.
- وما هي قضيتكم التي تشتركون معي فيها؟
- لن أخفي عليك الأمر إننا نحتاج لبلاغتك لتمرير رسائلنا.
- وماذا أستفيد أنا من ذلك؟
- المال الكثير سوف تصبح أغنى رجل في المدينة، وأيضا الشهرة سوف تفتح لك أبوابًا لم تكن تحلم بها.
- دعني أفكر.
- خذ وقتك، ولكن لا تتأخر.
- لا تقلق سوف أعطيك الجواب في مدة أقصاها الأسبوع.
- إذًا اتفقنا انتظر ردك...

نهض من مكانه، واختفى، عدت أدراجي، وأنا أفكر، العرض جميل وأكثر من رائع، ولكن يجب أن أعلم المعلم به فهو الوحيد الذي يقرر وأنا أنفذ فقط، على العموم أعلم حدودي معه فقد رأيت الكثير لا يعلم أنه من يعصِ أوامره فسوف يهلك لا محالة. وجدته معتكفًا في وضعية التأمل مرتفعًا بين السماء والأرض علمت أني الأمر سوف يأخذ وقتًا لا أعلم متى ينتهي؟ ولكني لم أستطع التحرك حتى ينهي تأمله، فسكتُّ وانتظرت عندما انتهى نظر إلي قائلًا:

- أخبرني ماذا تعتقد هل هذا الصحفي صادق في ما يقول؟
- لا أعلم أنا أنتظر أوامرك.
- لقد علمت أنه من جهة تؤيدنا، ولكنهم في مجال يختلف عنا.
- إذًا تريدني أن أخبره بأنّا موافقون على التعاون.

فصمت المعلم، ولم ينبس بحرف.

فهو يعلم يقينا أن هذه الخطوة إما أن تكون خطوة النجاح والشهرة، ولكنه يعلم أنه سلاح ذو حدين فارتفاعك إلى الأعلى وتسليط الأضواء قد يكون مهلك وبعد فترة قال:

- سوف نوافق، ولكن أريد منك أن تنتبه لخطواتك جيدًا.
- حاضر سيدي.
- واعلم أن الأخطاء التي حصلت في القرية لا يمكن تكرارها هنا، أفهمت؟

احمر وجهي خجلًا وقلت:

- نعم سيدي لن أكررها.
- أجل اتفقنا، أخبره بموافقتك ونحن سوف نتابع أخبارك من بعيد.

بعد الموافقة، وفتح الحساب شخصي وايداع المبلغ في البنك كان أكبر مبلغ استلمته في حياتي صحيح أني كنت أستلم مبالغ الصدقات من الفلاحين، ولكن هذا المبلغ كان أضعاف ما استلمته في سنة عند أهل القرى، ففرحت وبدأت العمل كنت شرسًا في دفاعي وواثقًا كنت متحدثًا بارعًا كما كان يقال عني فقد سمتني الصحف ساحر المسرح كنت لا أرحم أي متحدث يتواجه معي، ولأني أعرف أني أتكلم كلامًا فارغًا تجنبت النقاش من العلماء الحقيقيون، فلم أقترب منهم، وحتى أني اتفقت مع عمر بأن يتجاهل مطالبهم لدفاع عن آرائهم.

وبذلك نجحت في زرع بذرة الشك في عدد ليس بقليل من الناس، وخصوصًا الشباب تقربت منهم، وأصبح لدي أيضا عدد لا يستهان به من المعجبين والتابعين لمنهجي، وأيضا تقربت من والي المدينة، ولأنه كان فاسدًا محبًا للخمور والنساء فقد ساندني وقربني من البلاط. فقد حولت اسم الخمر إلى شراب روحي، وادعيت أنه له فوائد على الصحة، فأقنعت كثيرين، وبذلك فتحت أول خمارة في مدينة كانت شديدة الاعتداد بدينها، ثم انقلبت على النساء، وخطبت بأن المرأة

أسيرة للرجل، وأنها في هذا الدين ليست بسيدة، إنما خادمة، وأن النساء يستطعن أن يفعلن ما يفعله الرجل، فما حاجتها إلى الرجل؟ فهي كانت تلاقي ما تلاقيه من قمع على يد الرجل، فخرجت مجموعة من النساء اللائي أحرقن خمارهن اعتراضًا وتحديًا على الأعراف والمعتقدات، وسرن سافرات في الشوارع، أما العلماء الذين حاولوا مجادلتي، وبمساعدة من الوالي فقد سجنا منهم من سجنا، ونفينا المجموعة الأخرى وصادرنا أموالهم.

أصبح يتحلق في مجلسي الذي أعددته طلاب العلم من المريدين سواء من النساء أو الرجال بعد أن أمرني معلمي بالتظاهر بالتقوى.

الغريب أن أحدًا لم ينتبه إلى الكتب التي يقرؤونها جيدًا أم أعمتهم الطاعة العمياء، ولكنهم كانوا في تنويم إيحائي يصعب الخروج منه، فطوال الليل نبتهل بكلمات ليست مفهومة للعامة، لا يعرف معناها إلا أتباع معلمي، وهم ثلاثة عشر تابعًا فقط. لم يكن يعلم هؤلاء الحمقى أنهم يبتهلون إلى معلمي الأكبر السيد الذي يكرهونه ويتعوذون منه.

أما الخطوة الثانية، وبعد أن اقتنعوا، وانتشوا بالخمر والمخدرات أخبرتهم أن النساء كالأزهار لا يجوز أن تكون لرجل واحد، فاستبحت الفروج أيضًا، ففرح وغنى من غنى، ولكن هناك بعضًا منهم لم يقتنع بهذا الكلام وانسحب.

لم أكن خائفًا منهم، فقد زادت سطوتي وغروري ولكن كان يجب أن أعلم. فقد ذهب التائبون منهم إلى السلطان، ومعهم من الشهود وأخبروه بأحوالنا، فأصدر فتوى بأن هذا الدين باطل، ولا صحة لما أقول، وصدر بحقي القصاص.

وفي الليلة نفسها خطبت في القوم وخطبت بصوت قوي حد المبالغة وقلت:

- أيُّها الناجون نحن في امتحان عويص امتحان يجب أن تثبتوا فيه للوصول إلى النجاة، فدعاة الباطل يتكالبون علينا، وقد حلمت بما ينتظرني. ويجب عليّ أن أرحل إلى الجنوب لم يعد لنا مكان هنا أني أخاف عليكم يا إخوتي وأخواتي من يريد النجاة فليتبعني أريد منكم أن تذهبوا الآن وتتخففوا من أغراض الدنيا وتحضروا المال، المال فقط لنرحل إلى مكان يتقبلنا ونعيش راحتنا الأبدية أنتظركم هنا عند طلوع الشمس إما أن تأتوا وإما القافلة سوف تسير من دونكم.

وافق الجميع وفي اليوم التالي كنا جاهزين للرحيل الأمر الذي لم يعلمه أتباعي أنه صدر قرار بإهدار دمي.

لقد حماني مرة أخرى معلمي، وأخبرني بالخبر قبل دخولهم بساعات معدودة، ونصحني بأن أستقل أنا وأتباعي السفينة التي تدعى (سيدة البحار)، فإن فيها سيد من منظمة الثالثة عشر، وهو

مقرب من المعلم جدًا سوف يساعدنا، وفعلًا على الموعد ركبنا البحر، وفي منتصف المسافة وجد أن هناك حركة غريبة فاستيقظت على خنجر مسلط في نحري يقول وهو يجرني للنهوض:

- انهض وسر أمامي وإلا قتلتك ها هنا.

مشيت وأنا لا أرتدي سوى الخفيف من الثياب حافي القدمين والمطر شديد والأمواج عاتية، ولكن هذا لم يرحمونا فما إن وصلت السطح حتى وجدت كل أتباعي يقفون على حافة السفينة وفي لمح البصر أشار القبطان بسلاحه فدفعنا خارج السفينة لم ينج من الحادثة سواي ومنذ ذلك الحين، وأنا أعيش في هذه القبة.

***

الفصل الثامن..

.. العالم المثالي

قال مؤتمن:

- دعنا نراجع ما فهمناه حتى الآن.

أغلق المستشار الكتاب مرة ثانية الكتاب والتفت إليه وقال:

- أتعتقد أننا سوف نصل إلى الحقيقة، إن الأمر أصبح معقدًا كثيرًا، فحتى الآن عندما علمت حقيقة الملك، وسمعت ما فعل بالآخرين أعتقد أن الكل مشتبه به، لم أعد أؤمن كما في السابق أن علي الاقتصاص من الملك، ولكن الآن أشعر أنه نال عقابه فهو مجرم يستحق الموت.
- دعنا لا نتسرع في الحكم فهناك مجرم لا تعلم ماذا يريد ويجب أن نحمي أنفسنا منه.
- ألا تعتقد أن الأمر انتهى.
- لا سوف ينتهي حين نعلم من الذي يقف خلف هذه الجريمة وماذا يريد.

شعر المستشار أنه طفل لا يعلم ماذا يفعل، ولا كيف يتصرف، وها هو شخص أصغر منه في العمر يخبره ماذا يفعل، شعر بالعار والخجل، ولكن كان في موقف يُحسد عليه فبعد أن كشفت الأوراق اهتزت ثقته بنفسه كثيرًا.. ورغم أنه لا يظهر ذلك إلا أن هذا الأمر هز كيانه، جعله مترددًا خائفًا من أي قرار يبديه، لم يعد يرى المستقبل ملونًا ناصعًا كما كان يتصور فقد اعتقد طوال الخمسة وثلاثين سنة أنه في عالم الخلود والنعيم، والآن يواجه بالحقيقة أنه كان حبيس شخص معتوه.

انتبه أن مؤتمن كان يتحدث فانتبه أخيرًا وقال:

- أعد لم أكن منصتًا.
- أعتقد أننا يجب أن ننهي المذكرات في أسرع وقت لنعرف كيف نتصرف بعد ذلك.

أطرق رأسه وقال:

- نعم أنت محق دعنا نكمل.

فتح الكتاب وهو في قرارة نفسه يريد أن يدمره يرميه في مكان لا يجده أحد، فما كتب الملك كان عارًا على كل إنسان كيف سمح لغروره أن يقوده ويجعله بثقة عمياء يكتب مذكرات سماها المستشار مذكرات العار.

واصل القراءة وقال:

- هناك صفحة مكتوب عليها (سن القوانين).

انظر إنه مكتوب بخط كبير سؤال يقول: كيف تجعل مواطنيك مطيعين كالبهائم (بالنسبة أهل القبة)؟

وجد فيها النقاط الآتية:

- لا يوجد فرق بين المرأة والرجل. إن المرأة تستطيع أن تدافع وتحرس المدينة، مثلها مثل الرجل. فقط انزع عنها صفات الأنوثة، وكرّه إليها الأمومة؛ لتصبح مثل الرجل، ولكن أضعف بنية.

- ادفعهم إلى الاعتقاد بأنهم مجموعة مميزة من الناس، أما باقي الفئات، فهي خلقت لخدمتهم.

- المرأة لديها مهمتان فقط: الحراسة، وتفريخ الأبناء الأشداء دعها تعتقد أنها مساوية للرجل، ولكن في الحقيقة لن تحقق التساوي أبدًا فهي مخلوق ملعون منذ ولادته.

- وضع كل منهم في اختبارات شتى لتحديد قدراتهم، مثل: تجويعهم، وحرمانهم من النوم، وحرمانهم من أبنائهم، وكل هذا يفعل في سبيل مصلحتهم، هل سيقتنعون؟

- لا توجد ملكية خاصة، حتى المرأة ملك مشاع للقوي، ولكن يجب أن يستأذن ولي أمرها.

- تدريب النساء والرجال معًا.

- لا توجد بيوت خاصة، إنما ثكنات يسكن فيها كل مجموعة في قسم خاص.

- يكون الأطفال تحت وصاية الدولة.

- لا يجوز امتلاك أي شيء لا الذهب ولا الفضة.

- الدولة وحمايتها أهم من الفرد نفسه.

- الاشتراك في كل شيء، حتى في الزوجات؛ لتكون لنا أسرة واحدة، ولا تكون هناك تبعية لأحد غير التبعية للدولة.

- يجب أن يكون عدد أفراد الدولة 300 فرد لا أكثر ولا أقل؛ لكي تصبح القسمة عادلة سواء في السكن أو في الطعام.
- إيهامهم بأنني خليفة الله في الأرض، وأن كل ما أقوله يأتي مباشرة من الخالق.

صرخ بصوت عالٍ وقال:

- يا له من ثعلب ماكر، انظر إنه يعترف بكل وقاحة ذلك يا لنا من مغفلين؛ لقد كان أفّاقًا كاذبًا، هل يعقل أن كل ما كان يقوله الملك كان فعلًا كذبًا لم يكن يريد التصديق، ولكن ها هي المذكرات تجيب عن كل سؤال وتخبره الحقيقة، وكأنها صفعات توجه إليه لقد آمن فعلًا أن الملك هو الآمر الناهي في حياته، وهو المتصرف فيها. لقد آمن بمدى حكمته وصلابته. لقد اكتشف أنه في وكر الثعابين، وهو الذي كان يحسب أنه في المدينة الفاضلة، كما كان يسميها الملك لقد كان في المدينة المضللة.

كانت كل صفحة من صفحات اليومية لا تخلو من عبارات شتم للشعب، فهم مغفلون أو أغبياء. كيف استطاع أن يفعل ذلك بهم.

سيطر الغضب على المستشار، إلى حد أن قذف بالمذكرة إلى آخر الغرفة وقال:

- لا أستطيع فعل هذا.

- كن قويًا – أيُّها المستشار – فنحن في الطريق الصحيح لا تدع الغضب يعميك عن رؤية الصورة الكاملة، صحيح أن الأمر صعب، ولكن قل لي أتريد أن تكون في الحياة الأفلاطونية أم أن تعيش الحقيقة بوضوح لتستعيد نفسك الضائعة وتعرف حقًا من تكون.

نظر إليه ببلاهة وقال:

- أحقًا تتخيل أني أريد أن أعرف من أكون؟
- نعم أنا مؤمن جدًا بأنك سوف ترتاح في نهاية الطريق.
- أنا لم أعد أعلم.

انهار بالبكاء كان جسده يرتعش، وسقط مغمًا عليه، فقد ارتفعت حرارته وأصبح يهذي من التعب.

هذه المرة عندما أفاق وجد الجميع قلق نظر في أعينهم فشعر بالحب فعادت ثقته بنفسه وعاهد نفسه أنه لن يرتاح إلى أن يكشف الحقيقة ويحرر قومه وأصدقائه واخوته من الأسر أيضا، قال أحدهم وفي نظراته القلق:

- أتشعر بتحسن – أيُّها المستشار – أتريد شيئًا نحضره لك؟

سُعد بهذا الحب والاهتمام، صحيح أن الملك كان ثعلبًا كاذبًا ولكن الناس هنا مشاعرهم صادقة، ومن حقهم أن يعرفوا الحقيقة سوف يجد الحقيقة عاهد نفسه بذلك، وكان الحب ما شفاه فقد نهض من سريرة معافى ونظر يبحث عن الحراس، وعندما تقدم طلب منه وقال:

- أريد منك أنت وحارس آخر أن تقلبوا مكتب الملك رأسا على عقب.
- ولكن عن ماذا نبحث؟
- عن ملفات تخبرنا من نكون.

التفت إليه الجميع وقالوا بصوت واحد:

- ماذا تقصد بكلامك؟!
- سوف أخبركم في الوقت المناسب أما الآن... (ونظر ثانية إلى الحارس أشار إليه بالرحيل).

كان القلق قد ظهر على الجميع فتقدم أحدهم وقال:

- أيُّها المستشار من حقنا أن نعلم ما هناك فالملك يعتبر قائدنا شعلة القبة، ومع انتهاء حياته لا نعرف ماذا نفعل، لم نعد تعرف كيف نبتهل؟ وهل الغداء الذي نأكله مبارك أم لا؟ خصوصا أن الملك هو من يحمينا وطعامنا وحياتنا من كل الشرور.

كان يريد أن يصرخ في وجهه ويخبره حقيقة الملك كاملة، ولكنه هدئ فليس الآن الوقت المناسب للحديث، خصوصًا وأنه لم يصل إلى الحقيقة بعد.. فابتسم في وجهه وقال:

- سوف نخرج من هذا الكرب كالماس تدهش من يراها، ولا يعلم أن تحت هذا الجمال ضغطًا استمر أعوامًا ليتحول إلى ما هو عليه الآن.

كانت الراحة ظاهرة على الوجوه عندها دخل الطبيب، وأمر الجميع بالخروج، عندها نهض المستشار رغم تحذيرات الطبيب، ولكن أعلمه أنه بخير وذهب إلى حيث مكتب الملك، فقد أراد أن يشرف بنفسه على البحث عن تلك الأوراق، فقد علم أن الملك كإنسان يدون مذكراته، أكيد أنه يحتفظ بكل الملفات والأوراق التي سوف ترشده للخروج من هذا الحبس.

كان مؤتمن يجلس، ومعه المذكرات ويقرأ بصوت عالٍ والمستشار يبحث في الأوراق ويسمع وقال:

- اسمع لقد كتب عن الطبقة التي أسماها الطبقة المسلوبة، فقد كتب:

هنا أنهي قانوني الخاص بشعبي، ولكي تكون الدولة أو المجتمع كاملًا يجب أن يكون هناك طبقة مسلوبة الإرادة ولأن سنة الحياة دائمًا وجود غالب ومغلوب على أمره، ومن مصلحة المغلوب على أمره أو العبد أن يكون لديه سيد، فهو بالفطرة لا يستطيع تدبر أمره بنفسه. ومن جهة أخرى، السيد يحتاج إلى أحد ليوفر له وسائل الراحة.

سوف يتم إحضارهم من دولة بعينها معروفة باختطاف أبنائها وبيعهم بأبخس الأثمان فهم يمتازون بقوة الجسد وتحمل الضغط العمل ولا يموتون بسهولة، أعطهم فقط القليل من الطعام وراقبهم هذا كل ما في الأمر، الحمقى الأغبياء لم يعرفوا أن تحريرهم يكون بين أيديهم فأكثره تغلب القوة، ولكن الذي يخاف الموت لا يتحرر أبدًا وهو أمر يصب في مصلحتي أن يبقوا على هذا الغباء والجهل.

أخيرًا ولتكتمل التجربة يجب أن تكون هناك مجموعة دنيئة هؤلاء قيمتهم هي بإقامة التجارب عليهم، وللكسب المباشر فمنهم من يذهب قرابين والآخر يباع كقطع غيار للمستهلك فلكل عضو من أعضائهم مسّعر، وهؤلاء الفئة هم أقرب إلى القطيع منه إلى الإنسان، وهنا أقول يجب أن تكون صفات أفرادها كالآتي:

يجلبون وهم أطفال، وقد يكونون إما أسرى حرب وإما مخطوفين من ذويهم، لا يهم.

يجب عليهم اتباع التعليمات، ومن يخالف فمصيره الموت. حياته لا تعني شيئًا للدولة، فهو أداة لتسهيل أمور سيده بالنسبة إلى الخدم، أما بالنسبة إلى التجارب، فلا قيمة لهم على الإطلاق.

لا تأخذكم بهم شفقة، فهم يضمرون الحقد لنا.

يباح كل شيء يمكن أن يفعله المواطنون بالمستعبدين، فهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى البشر.

يقتصر أكلهم على فضلات الطعام، ولكل واحد منهم أربع شربات ماء فقط في اليوم.

لا تأكلوا ولا تشربوا معهم، فهم أنجاس.

لقد طلب مني أن أحضر هؤلاء الأطفال أسرى الحرب. فهم أطفال، لن يسأل عنهم أحد، ولن تثار شكوك حول اختفائهم. لنتدرب عليهم، فالجميل في الأمر عندما تسرق طفلًا وتربيه على شيء، فإنه يعتاده سريعًا.

فالأطفال يتأقلمون؛ لذلك فضلت أن أقيم تجاربي على الأطفال؛ فهم نواة البشر، ويمكن أن تحفر في أذهانهم أشياء أسهل من الكبار، وبذلك أستطيع تجريب كل النظريات، ما هو مناسب ونعتمده، وما هو سيء ننحيه جانبًا.

في آخر المذكرات كتب: «كم أتمنى أن أخرج وأرى العالم من جديد. أرى الشمس ولو مرة واحدة قبل أن أموت، ولكن هيهات. لم يعد باستطاعتي الخروج. فقد أقسمت، وعاهدت سيدي على الولاء والطاعة، وفي الحقيقة هو الوحيد الذي لا أستطيع أن أخالف أوامره، فحضوره بحد ذاته يرعبني، ورغم ذلك أنا فخور بنفسي، فمن يستطيع أن يقول إنه استطاع أن يتحكم بقطيع من الناس، ويكسب تلك الأموال الطائلة، ويرعب من في البر والبحر. أشعر أنني قاربت على النهاية، فمعلمي لم يعد يظهر لي. أنا أخاف من نهايتي. لا أعرف كيف سوف أرحل، ولكني راحل قريبا لا محالة».

كانت مذكرات الملك تبعث على الحزن، فهو إنسان مريض يفتقد معنى الحب، سادي المشاعر ينقاد لرغباته، وقُتل بسبب جنونه.

أغلق مؤتمن الكتاب، وصمت وبعد برهة من الزمن انتبه المستشار بأنه توقف عن القراءة وقال:

- ماذا حدث أكل شيء على ما يرام؟
- نعم لقد انتهى كلامه، وأنت أوجدت شيئًا؟
- لا، بعض الأوراق والفواتير، انظر هذه فاتورة مكتوب عليها رئة بمائة وتسعة عشر ألف ما حاجتنا للنقود لم نكن نحتاجها هنا.
- لا أعلم، ولكن سوف أباشر بالبحث في هذه الجهة.
- انتظر لقد وجدت شيئًا تعال.

وفعلًا عندما فتحا الدرج وجدو ملفات، كل ملف يحمل اسم من أسماء سكان القبة، ووجد المستشار ملفه فقبض عليه واحتضنه وحتى مؤتمن وجد ملفه، ولكن فضول مؤتمن كان أقوى من المستشار فسارع بفتحة وقراءته فوجده متضمن التالي:

صورة شخصية والمعلومات الشخصية من اسم الأم والأب ومكان الميلاد وعامه.

ملف الإنجاز والانضباط.

الملف الصحي سواء الجسدي والنفسي.

ما أخاف مؤتمن وتنهد عندما علم أن الملك مات لقد كانت هناك ملاحظة بخطورته على القبة ويجب مراقبه تحركاته وإن شعر الأخصائي النفسي أنه مصدر تهديد سوف يقتل.

أما المستشار عندما تجرء وفتح ملفه وجد التالي:

أول حقيقة أنه لم يولد في القبة إنما خارجها وعلم أيضا أنه بيع من ملجأ في مدينة لأب سكير عربيد، هرب من زوجته عندما علم بحملها فعانت الفقر واضطرت أن تتخلى عنه وتودعه الدار، أما ملف الانضباط فقد سجل أعلى الدرجات فيها، ولكن ضايقه عندما قرأ التعليق الخاص فيه التي تركه المختص النفسي فقد كتب التالي:

يتأذى بسهولة، حاجة دائمة للمدح من صاحب السلطة أو القائد، يخاف كثيرًا الرفض، يميل إلى السذاجة أحيانًا، سليم الأعضاء ولا يشكو من مرض.

التوصيات: يناسب ما سبق ناقشناه بتعينه المستشار الترفيهي للقبة.

هكذا كان يصك أسنانه غضبًا.

- ألهذا السبب عينت، وأنا كنت أعتقد أني المناسب لكفاءتي وليس لسذاجتي يا لي من أحمق!

قال مؤتمن:

- ليس الوقت لترثي حالك المهم أننا علمنا ما أردنا معرفته دعنا نخرج الآن.

الفصل التاسع..

.. العهد قبل موت الملك بعشر سنوات

في منطقة التحميل في أحد الموانئ المطلة على البحر المتوسط، البحر هائج، والسفن غير مستقرة تكاد تنزع عنها رواسيها لتلوذ بالفرار من تلك الأمواج الثائرة، وكأنها غاضبة وتزمجر بأنها غير راضية بما يحصل، أطفال كثيرون من جميع الألوان والأعمار منثورين مجموعات في كل مكان يجمعهم شيء واحد هو نظرة الضياع والخوف والأعين حمراء من أثر البكاء، مرتعدي الأوصال من البرد والخوف في آن واحد متسمرين لا يعلمون ماذا يحصل معهم، وإذا برجل واجم الملامح ينادونه القبطان ينادي بصوت يصم الأذان يأمرهم ويقول:

- ما هذه الفوضى باشروا أعمالكم أيُّها الحمقى دعونا ننتهي بأسرع وقت، فليس لدينا وقت لنضيعه!

وفي غضون دقائق فُصِل الأطفال عن بعضهم بمهارة عالية بالجنس أولًا ثم بالأعمار.

كان من ضمن الأطفال الذين تشاركوا نفس المجموعة كنان وفارس وموينغولو أطفال لم يبلغوا الحادية عشر يقفون مرعوبين شبه عراة. المكان رطب، والسماء تمطر بشدة، ولا يوجد ساتر يحميهم من المطر، هناك حيث غابت الإنسانية هناك أصبحوا بضاعة ليس إلا.

في هذه الرحلة الجحيمية أدركوا سريعًا أن لا أحد سوف ينقذهم، ولن يبحث عنهم أحد فهم في وسط المجهول.

في ذلك الجحيم سمعوا أقبح الشتائم، وذاقوا أنواع الضرب العشوائي الذي ليس له أي مبرر، فقط مجرد تسلية وسادية لم يكن أحد يستطيع حتى الدفاع عن نفسه، فالكل مجهد من الرحلة، وجياع، فقد مرت قرابة اثنتان وعشرون ساعة من دون أن يتذوقوا طعامًا.

كان موينغولو هزيل البنية قصير الخطى، يعاني من عرج بسيط يلاحظ عندما يسير، أسمر اللون ذو أنف كبير له عينان صافيتان رغم أنه على الأغلب يعاني ضعفًا في النظر، حيث إنه طوال الوقت يحاول أن يتحسس مكانه، ولديه بقع بيضاء منتشرة في جسده. فشدَّ منظره كنان فتسلل إليه، ونجح دون أن يشعر الجلادون بالاقتراب منه، كان عندها جعل نفسه درعًا لحمايته من الأذى الذي استمر ساعات كان يجلس تقريبًا فوقه لكي لا يلاحظوه فقط، همس له عندما اقترب وقال:

- لا تتحرك (وضم يديه ليطمئنه).

فقال بامتنان واضح:

- شكرًا (وكانت الدموع تترقق من عينيه).

بعد انتهاء الحفلة الجحيمية وُزع الطعام، كان مكونًا من كسرة خبز ورشفة ماء، لم يتذمر أحد رغم أن الماء آسن والخبز يصعب مضغه، ولكن كان بالنسبة لهم كطعام أهل النعيم، عندما التهموه حتى الفتات لم يعقبوه وأكلوه وجدو أنفسهم متعبين، ولم يشعروا إلا وهم في سبات عميق، فقد كان اليوم جدًا متعبًا، مات من مات، ونجى الأقوى.

الجميع يحاول أن ينجوا بأرواحهم فهي دون رغبة منهم تحاول الصراع للنجاة من الموت.

جميعهم غطوا في نوم عميق، وكأنهم يحاولون الهرب من الواقع هناك حيث الإنسان يستطيع أن يفرَّ بروحه من الواقع وقساوة الحلم، ذلك المهرب الوحيد الذي تستطيع فيه أن تكون بطلًا خارقًا تقاتل الأعداء وتنتقم لنفسك وشرفك هناك فقط لديك الإمكانية، أما الواقع فدعونا لا نتكلم عنه الآن فقد كان الأطفال يئنون خائفين. ولكن لا أحد يجرؤ أن يفتح عينيه أو يتحرك خوفًا من العقاب.

استلقى كنان بجانب موينغولو، وهو شاحب الوجه مصفر شارد الفكر، وحتى موينغولو كان يفكر هو الآخر إلى عالم سرق منه، إلى الآن وهو لا يصدق ما يحدث له، فقد تغيرت حياته فجأة في لمح البصر، كيف إنه منذ ساعات مضت فقط كان يلعب في قريته التي كانت تدعى تبر وذلك لتشبيه رمالها بفتات الذهب قبل أن يُصاغ، تقع على شاطئ البحر برملها الذهبي، وبحرها صافي الزرقة، وسمائها التي كانت كالبلور بسكان مسالمين يأتيهم رزقهم من البحر فقد امتهنوا الصيد. كان هناك يرقد في أحضان والدته، إلى الآن يشعر بنعومة بشرتها ورائحتها التي ما يضع خدة على أرجلها حتى يشعر بالدفء والحنان، كم روت له من القصص وهي تعد الطعام الغداء وعند العشاء بعد يوم طويل من العمل في المطعم، فهي تعمل في شفتين أحدهم من الصباح إلى الساعة الثانية والآخر من الساعة الرابعة إلى

الساعة الثانية عشر عند منتصف الليل، فقد أنشئ للسياح ولعابرين السبيل، يذكر فقد كانت تستغل الوقت وتعود أدراجها لتجلس معه لكي لا يشعر بالوحدة والملل، فقد كان حبيس الدار بعد أن ظهرت إشاعة ان أعضاء من يصابون بمرض يدعى البهاق فتربص لخطفهم والتجارة بهم. عادت من العمل وخلعت شالها الأخضر فأسدلت جدائلها الطويلة الكثيفة التي زينتها بأصداف من البحر فجعلها تبرز عن باقي النساء قالت، وهي شاحبة الوجه متوترة:

- موينغولو انتبه لا تخرج من الكوخ فقد تفاقم الخطر، عدني بأنك لن تخرج من الكوخ أرجوك.
- ما بالك يا أمي؟
- أشعر بأن الخطر قريب، وأنا أخاف عليك!
- لا تقلقي عليَّ أتوسل إليك أنا أعرف كيف أدبر أمري.

وضحك لكي يشعرها بالطمأنينة ما زاد الأمر سوءًا فقد انهارت بالبكاء وقالت:

- لقد خُطف طفل آخر اليوم أرجوك لا تخرج من الكوخ.
- لن أخرج أعدك.

وعندها شعرت ببعض الراحة، وأكملت الطهي وهي تنتقل من حديث إلى آخر حتى إنه لم يعد يستطيع تتبع الأحداث وأصبح يسأل لتجيب فيشعر بالضياع فيضطر أن يسكت ليصبح مستمعًا فقط دون تعليق.

انتهت من إعداد الطعام وعندما انتهيا منه كان يجب عليها أن تعود مرة أخرى إلى العمل التي لم تعلمه والدته إنه كان يخرج من دون علمها إلى البحر مع فتاة كانت كالأخت بالنسبة إليه كان يراها كعينيه التي يرى بها لديها قدرة عبقرية في وصف المحيط الذي كنا فيه فكانا يلعبان حتى يأتي الوقت الذي يعلمان أن والدته سوف تعود فيعودون أدراجهم مرة أخرى.

هكذا طوال السنين ولم يعر لوالدته وتحذيراته اهتمامًا فقد حرص أن يخرج في أماكن لا يكون فيها بشر. عاد من سيره كعادته ولكن هذه المرة كان في انتظاره مفاجئة انقلبت حياته رأسًا على عقب. دخل رجال إلى كوخه، أخذوه وهربوا. حاول الهرب منهم، ولكن كانوا أقوى منه، فكيف لفتى بالعاشرة أن يحارب هؤلاء الجبابرة. كانت أسوأ اثنتي عشرة ساعة مرت في حياته. عُذب واُعتدي عليه إلى أن وصل السفينة التي نقلت إلى الميناء.

كم ندم على فعله، وكلمة ليت لن تنفع أحدًا الآن، كم يتمنى أن يقول لوالدته إنه آسف، وعصف في ذهنه سؤال هل سيرى وجه والدته ثانية؟ فأجهش في البكاء، الآن هو في مكان لا يعلم أين، ولا يعرف إلى أين مصيره. اقترب منه كنان، وحاول أن يتواصل معه بالإشارة كان وهو يشير يتحدث باللغة العربية فأجابه مومنغولو:

- أنا أتحدث اللغة العربية الفصحى، فقد حرصت والدتي على تعليمي، وأحضرت لي معلم ليعلمني الدين وحفظ القرآن.

فارتاح كنان وقال وهو يهمس خوفًا من أن يسمعه أحد:

- ماذا تعتقد أنهم سيفعلون بنا؟
- لا أعلم، ولكني خائف.
- لا تخف. أنت معي. من الآن سنواجه المخاطر معًا.
- جيد هل أنت على ما يرام؟
- نعم.. أشعر بالجوع والبرد.
- وأنا مثلك، ولكن لا تخف، فأنا إلى جانبك.

كانت عينا مومينغولو تعبران عن الشكر والامتنان، كأنه غريق وجد من ينقذه، فمد يده له، واقترب منه، واقترب منه حتى التصق جده به وراح في نوم عميق.

الذي لم يعلمه مومينغولو أن سبب حمايته له هو أن كنان رأى فيه أخاه قاسمًا ذلك الفتى طاهر النفس الضرير الذي كثيرًا ما حماه من قسوة واستهزاء الآخرين. كان كدرع يحاول أن يحميه من العالم. يريد أن يراه سعيدًا فقط. سعيد بأن يمتص الألم منه، ويجعله في عالم بعيد من الشرور.

إلا أن درعه وحمايته لم يفده في شيء فعند القضاء لا أحد يستطيع ردعه، فقد انفجرت قنبلة وهو عائد إلى منزله مع عائلته مما أدى إلى مقتل أخيه ووالدته.

هذا الحادث أفقده بصره وأفقده توازنه فأصبح عدائيا غاضبا طوال الوقت، فقد انكسر قلبه، وأصبح إنسانًا يتنفس فقط.

سكن المخيمات مع جدته التي أعياها المرض، فأصبحت مقعده لا تقوى على إعالة نفسها، وفي يوم من الأيام حدثت المعجزة فقد كانت هناك باحثة أتت تدرس الحالة الاجتماعية في المخيمات، وهي أيضا تعمل في مؤسسة خيرية مشهورة فتبنته وساعدته في العمل فأصبح يعمل غاسل صحون في مطبخ الجمعية، كانت مهتمة به حيث إنها وجدته يختلف عن باقي الأطفال فتقربت منه بعد أن نادته إلى مكتبها وجلست بجانبه وقالت:

- أنا سعيدة بتفانيك وطموحك، إنك من أكفئ العاملين لدي، وأنا أحببتك وسوف أساعدك.

تحرج كنان من جراءتها فهو رغم سنواته العشر كان رغم ذلك يخجل من قرب النساء له ولا يعلم كيف يحدثهن ولا كيف يتعامل معهم فأبعد نفسه قليلا منها وقال:

- أشكرك يا سيدتي أنا فقط أقوم بعملي.
- نعم.. نعم ولكن ليس كل الذين يعملون في الجمعية بمصداقيتك وجهودك.
- اسمع سأدخل في صلب الموضوع لدي عرضًا مغرٍ لك.
- أنا؟!

- نعم أنت أريد أن أساعدك.
- أشكرك يا سيدتي على ذلك، ولكن ما هو العرض؟
- أن تكمل تعليمك وعلى حسابنا الخاص، هل تقبل العرض؟

وقف غير مصدق، وصرخ عاليًا سعيدًا وهي المرة الأولى يشعر بالسعادة بعد موت عائلته وقال:

- نعم أكيد سوف أقبل العرض.
- ولكن هناك شرط وحيد.

جلس مرة أخرى وقال وقد اعتراه القلق فتوتر صوته، وقال متسائلا:

- وما هو هذا الشرط؟
- إنه شيء بسيط فقط أريد أن تجعل جدتك توقع على هذه الأوراق ليس إلا، وبعدها سوف تذهب للعيش في الخارج ويتسنى لك التعليم في أحسن المدارس، وسوف يصل جدتك مصروف أيضا تستلمه شهريًا.
- ولكن كيف لي أن أتركها وأنا عائلها الوحيد.
- لا تقلق لقد فكرت في ذلك سوف ننقلها لتعيش في مساكن المخصصة للجمعية.

فأخذ الاوراق وجرى مسرعًا إلى خيمة جدته فقصَّ عليها ما حصل معه لم تصدق العجوز نفسها، وقالت:

- هل أنت جاد بما تقول؟
- نعم أقسم لك أنهم سوف يساعدوني ويدفعون عني مصاريف الدراسة ويساعدونك أنت أيضًا.

فقالت وهي مستبشرة سعيدة تكاد تطير من الفرح:

- أخيرًا سوف يصبح واحدًا من عائلة عبد الراضي، أحد المهمين في البلد.

وفي خلال الأيام التالية شعروا أن الحظ ابتسم لهم أخيرًا فوقعت الأوراق ورتب بنفسها أغراضه.

أتى اليوم الموعود، وقالت له وهي تذرف الدمع وتقول:

- يا ولدي سأوصيك كما وصى رسول الله فقال **«يا غلام، إني أعلمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصحف»**.

ورغم أنها أمية إلا انها كانت سيدة تحفظ الشيء الكثير من الأحاديث والأشعار والقصص كانت نابغة في الحفظ فهي لا تنسى أبدًا وهذه ميزة وطامة بنفس الوقت.

أتت السيدة وكانت وقورةً حنونًا أمام جدته، ولكن عندما وصلوا إلى الحدود انقلب الحال فجأة وبدون أي مقدمات، فقد توقفت العبارة وسلمته لمجرمين استقبلوه وغيره من الأطفال بالضرب والتوبيخ. عندما شاهد كنان موينغولو أحسّ أن روح قاسم تجلت فيه، مع أنه لا يشبهه لا بالمظهر ولا الكلام، ولكن تلاقى قلباهما، وشعر أنه يجب أن يحميه.

كان فارس قريبًا يسمع ما يقولون، فارس ذلك الفتى في التاسعة من العمر قمحي اللون داكن الشعر له عينان فيهما بريق وطريقته في الكلام تجعلك تعتقد أنك تحادث شخصًا بالغًا له نظرة واضحة في الحياة نظر إليهم فرأى ما لم يرياه فرفع رأسه، وقال:

- نحن الثلاثة سنعاني أكثر من غيرنا، ولكن البعض منا سوف ينجو، وعانقهما.

قال فارس مقتربًا منهم وهو يهمس:

- دعونا نتعاهد الآن على أن نكون معًا في السراء والضراء، وإن حصل لأحد منا أمر سيء دافع عنه الآخران، فإما نحيا سويًا أو نموت سويًا.

كان الكلام يشعرهم بالراحة، مع أنهم في دواخلهم يعلمون أن حياتهم ليست ملكهم من الآن فصاعدًا.

عندما دخلوا الغواصة رميت إليهم بعض قطع الخبز الجاف مع الشاي. تلك كانت وجبتهم الأولى في قلب البحر. كان الضغط يزداد والشعور بالدوار يزداد إلى أن وصلوا إلى القبة. عندها كانت المفاجأة: مكان يشبه المستشفى. أناس بكمامات يوجهون الأطفال إلى غرف المعاينة. كانت المعاينة تتمثل في فحص اليدين واللسان والعينين، ومن يرى فيه صفات معينة يؤخذ على جنب، وقد أوقفوا فارسًا وحده. كان الرجل الذي فحصه سعيدًا، وكان ينظر إليه كمن وجد كنزًا، صرخ بأعلى صوته:

- لقد وجدت طفلًا (زهريًا).

تجمع حول فارس على صوت الرجل عدة أشخاص أعادوا فحصه، ونظر بعضهم إلى بعض، وفي عيونهم علامات الرضا.

عندها طُلب من فارس اللحاق بالرجل، ففعل. كانت نظرته غريبة، ولكنه كان الوحيد المطمئن طوال هذه الرحلة.

أما كنان فما إن حاول الرجل دفع مونغولو حتى بدأ بالهجوم عليه، ثم عاجله بعضة وضربه، وحاول الفرار، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة.

عندها صرخ رجل مفتول العضلات، وقال:

- هذا سوف يكون لي.

حاول المقاومة والإفلات من قبضته، ولكن دون جدوى. لقد كان في يده كالورقة يلهو بها. أخذه إلى مكان يشبه الزنزانة. كان يبكي ليس لشيء يؤلمه، وإنما لخوفه على موينغولو، كان يصرخ ويقول:

- ماذا ستفعلون به دعوه وشأنه. أرجوكم فهو ضعيف لا يقدر على ظلمكم. أرجوكم أطلقوا سراحه وبكى إلى أن غُشي من الهم والحزن.

لم يعلم كنان أو حتى منغولو أن الأخير يعتبر من أغلى غنائمهم، فهو من قبيلة الألبينو الإفريقية التي تشتهر بالبهاق، فلدى المجتمع الإفريقي والسحرة خصوصًا. اعتقاد أن أعضاؤهم تجلب الحظ، وتشفي الأمراض لذلك يصل عضو الشخص إلى آلاف الدنانير.

***

الفصل العاشر..

.. فارس (الزوهري)

تقول الأسطورة إن أول فتى بلغ مبلغ الرجال وكان والده قد وفر له جميع سبل الراحة والعيش الكريم من عائلة كريمة ومركز مرموق اجتماعيًا، كان الأب يعلق الآمال على هذا الولد وكان في كل مناسبة يزود ولده بالنصائح والتعليمات لكي تكون تنير حياته فهي كانت نتاج تجارب والده الطويلة وهو لا يريده أن يعاني كما عانا هو.

وفي يوم من الأيام نادى الأب ولده فقد شعر بدنو أجله قال له:

- يا بني اني سعيت جاهدًا في تربيتك ووفرت لك جميع سبل الراحة ومال وفير يجعلك تعيش عيشه كريمة، إني أشعر بدنو أجلي.

كان الولد يبكي ويقول:

- أطال الله في عمرك يا والدي.
- تلك هي الحقيقة يا بني، فاسمع ما سأقوله لك إني ناصحك ثلاث نصائح التي سوف تقيك الشقاء، اسمع فإنها نتيجة تجربة قاسية.

فهز رأسه الفتى علامة بقبول والانصات إلى الأب فأكمل قائلًا:

- يا بني لا تصاحب السلطان، وعش بعيدًا عنه فإن بيوتهم فتنة ولا يسلم من فتنتهم إلا القليل، لا تأمن أحد على سرك ولو أقرب الناس إليك؛ فقد يكون إفشاء السر خطر على حياتك، أما ووصيتي الثالثة فتجنب المتشدقين في الحديث ففي

كلامهم حلاوة ولكن مضمونه السم الزعاف، فاحفظ يا بني الوصايا وهذا، وأسال لك الله حياة سعيدة مستورة لا تشوبها الكوارث والأحداث المشينة.

أجاب الابن صادقًا والدموع تتساقط من عيناه وقال:

- أعدك سوف أتبع كل ما تقول.

مات الأب وجلس فترة يتبع وصايا والده وهو بين مؤمن ومشكك بها، فهو يراها مخاوف من الماضي وقد لا تنطبق على الزمن الحالي فأصبحت تراوده نفسه بالتجربة وجعل وصايا والده جانبًا فخدم السلطان وكان لديه صديق يأتمنه على جميع شؤون حياته.

وفي يوم من الأيام قرر الفتى أن يسرق خارطة الملك تلك الخارطة التي كان يحتفظ بها تحت حراسة مشدده فقد أعطيت له من قبل قبيلة من الجن بعد أن أقام اتفاقًا معهم على الصلح بعد أن أوقف صراع كاد ينهي الفصيلتين.

كانت تلك الخريطة تبين مكان الكنوز التي كان يخفيها الجن في أصقاع العالم، أخذ الملك ما يكفيه واحتفظ بالخريطة، فهو لا يريد أن يخل بالموازين، وما إن وصل حتى نادى رفيقه، وأخبره بما فعل فسولت لهم أنفسهم بالبحث عن الكنز بأنفسهم ورحلوا من البلاد. الذي لم يعرفاه عندما خرجا من البلاد أن صدر قرار بالبحث عن الجناة ومعاقبتهم عقابًا وخيمًا فقد شعر السلطان أن الأمر شخصي، وأن السارق قد أهانه شخصيًا فوضع مكافأة مجزية لمن يستدل على الفاعل.

لم يعلم الفتى بما فعلت يداه، وهو سعيد بما فعل فقد حلم بالغنى الفاحش والشهرة الواسعة، ذهب إلى المكان الأقرب فوجده دون عناء، ولكن الأمر الذي واجهه ثعبانًا أسود يحرس المكان فنصحه صديقه بقتله وفعلا أصابه وقتله ولكن المفاجأة أنهم لم يجدو شيء كانوا يعتقدون أن في الأمر خدعة فمزق الخريطة.

عادوا أدراجهم وكأن شيئًا لم يحدث، ولكن ما إن علم صديقه ما نشر من تهديد السلطان حتى خاف وخانه وذهب مباشرة إلى السلطان، وأفشى أمره لكي لا يتورط رغم أنه من حثه على هذا الأمر. الأمر الذي لا يعلماه أن الخريطة تظهر مكان الكنز ولكن لا أحد يستطيع لمسه إن النظر فيه إلا من كان من نسل السلطان.

فقد تم الاتفاق معه على استبدال ذريته ليستبدل بذرية من الجن يكونوا له عون لإيجاد والوصول إلى الكنوز والبحث عن المفقودين لديهم نفس صفات البشر باختلاف أن لديهم خصائص خاصة، منها مثلًا:

يد الواحد منهم بها خط مستقيم ومتصل يقطعها بشكل عرضي، ولسانه يقسمه خط طولي أيضًا إلى قسمين، وعيناه بهما بريق خاص، وتكون نظرة العين اليمنى كأنها تصب في العين اليسرى، وسموا بذلك الزهراوية وهناك صفات أخرى لا يعرفها سوى دارس أمور السحر الأسود والشعوذة من صفاتهم أيضا أنهم يستطيعون أن يستدلوا على أي شيء ضائع.

كان فارس يمتلك تلك المواصفات. كان يعرف ماذا يريدون، ولكنه لم يفش سره لأحد. فقد كان ابن أحد أكبر شيخ في فاس، وهو من نسل ذلك السلطان كانت عائلته تحاول أن تخفي حقيقتها عن العالم لخطورة الأمر. ولكن بعد أن أُختطفت أخته، وحاول أن يستدل على الفاعل فبعد التحري علم من الأطفال الذين شهدوا الأمر أنهم أتوا وهم يعلمون ماذا يبحثون عنها فقط أخذو أخته وهربوا، لم يصل إلى تفاصيل أخرى غير أن لديه وشم يظهر على يده اليمنى يمثل صورة فتاة عارية مكتوب عليها باللغة الإنجليزية: تبًا لهذه الحياة.

وبعد عناء وجد الرجل، وبعد التعذيب، اعترف بأنه من اختطف أخته وآخرين، ولكن لا يعلم لمَ يريدونها. هو فقط وسيط يأخذ على (الرأس)، ولكن رغم كل الوسائل التي اتبعوها لم يجدوا لهم أثرًا في كل البر، لم يعرف لها مكان؛ لذلك أعدوا خطة.

كان فارس يعيش مع أبناء الشوارع فترة، حتى اقترب منه شخص وعده بالربح، والعمل فوافق، وذهب معه. كان يعلم من يكون، ويعلم أنه كنز بالنسبة إلى الصيادين. فأعده والده للمهمة، ومرنه على فنون القتال، ووسائل الدفاع عن النفس. وفك المربوط ليقي نفسه من أي شيء يحدث. ولهذا كان يتوقع كل شيء إلا ما رآه في ذلك الميناء: أطفال شبه عراة منهوكين من التعب. كتم في نفسه مشاعر الألم. كان يريد أن يفعل شيئًا يحميهم كلهم، ولكن كان يخاف من أن تفشل الخطة، وهي لن تتكرر مرة أخرى.

عندما وصلوا إلى القبة بدأ التدريب، والإعداد لطريق الكنز. كان يمنون الأطفال بأن المجتهد النبيه من يستطيع أن يرى الكنز سوف يعيدونه إلى عائلته فرغب الكل واجتهد لذلك. كانت هناك تدريبات وتضحيات وطقوس تقدم. كانوا يذهبون في رحلات مع الجحافل المائية ليبحثوا عن الكنوز وعند القاع تقف الغواصة ويبدأ السؤال المعتاد.

- من منكم يرى ما لا نراه؟

فيصرخ أحد الأطفال وهو سعيد:

- لقد رأيت الكنز.

عندها يؤخذ ويفصل عن الآخرين، وعندها لا يرونه مرة أخرى. لقد كان يقدم قربانًا لحماة الكنز. هكذا كان الحال.

فارس يشاهد ما يراه الأطفال، ولكنه كان دائم السكوت، إلى أن جاء اليوم الذي شك فيه أحد المرشدين. كان دائمًا يرى فارس ينظر إلى الجهة نفسها التي يكتشفها أحد الأطفال الكنز. عندما صاح أحد الأطفال بأنه شاهد الكنز، فصرخ في وجهه المشرف وقال:

- أنت تكذب أيُّها المحتال الصغير.
- لا.. لا يا سيدي اني أقول الحقيقة

واتهمه بأنه يكذب، وأخذ يضرب الصبي لكذبه.

كان فارس يشاهد الطفل الذي كان يحاول أن يؤكد أنه يقول الحقيقة. ولكن المشرف استمر في ضربه، حتى شعر فارس أن الصبي مقتول لا محالة. وهذا ما دفعه إلى أن يصرخ بأعلى صوته فجأة ويقول:

- إنه يقول الحقيقة. نعم هناك كنز.

شعر فارس أنه أوقع نفسه في مأزق، ولكن لم يكن هناك مفر لينقذ الصبي المسكين من الهلاك. عندها صرخ المرشد وعيناه تقدح شرارًا وطلب من مساعده أن يعود به إلى القبة، ثم اقترب من فارس، وقال:

- أريد منك أمرًا. سوف تذهب مع هذا الجحفل المائي، وتغوص معه، وتحضر لي الكنز.

كانت المفاجأة التي لم يتوقعها المرشد أن يعارضه بقوله:

- لا، لن أذهب إلى أي مكان، أعلم ماذا سوف تفعلون بي، بعد أن تحصلوا على الكنز.

عندها احمرَّ وجه المرشد، وتحول فجأة إلى شخص غريب المنظر.

- بل سوف تفعل ما أقوله لك.

ولكن فارسًا لم يرف له جفن وأجابه قائلًا:

- افعل بي ما تريد، ولكني لن أخرج لكم الكنز.

حاول أن يلقي عليه تعويذته، ولكن كان كل التعويذات توقفت، وبطل مفعولها، فلم يسعه إلا أن يطلب من الجحفل إعادته إلى القبة ليُنظر في أمره.

وعندما وصلوا المقر، أجلسوه أمام قائد مستكشفي الزوهري أو كما يلقبونه رئيس السماسرة ذلك الرجل الكريه الذي طالما شعر فارس معه بالنفور منذ اليوم الأول الذي شاهده فيه، رجل ضخم لا يكاد تميز ملامحة من السمنة وذلك الكرش الذي يتدلى أمامه حتى أنه ليخيل أنه سيصل إلى الأرض.. صوت نفسه العالي الذي يخيل إلى السامع أنه سوف يختنق ويموت في أي لحظة عصاه غريبة الشكل التي لا تفارقه عندما جلس على المكتب قال بدون أن يلتفت إليه:

- لم أنت هنا
- لقد أُختطفت، وأتو بي إلى هنا.
- أنت تكذب أيُّها الفتى، فأنا أشعر بقوة طاقتك، ولكن الأمر الذي لا تعلمه أنك هنا خارج نطاقك، وأعلم أنك لن تستطيع أن تفعل شيئًا معنا لقد وقعت في الفخ أيُّها الأحمق (وضحك حتى شعر فارس أن الأزرار الذي في قميصه سوف تهرب من مكانها وأكمل وقال):
- سوف تكلف بمهمة أخرى.

فارس بنظرة تحدٍ فلم يعرف كيف يتصرف بعد أن انكشف أمره وقال بصوت أقرب إلى الهمس:

- إلى أين؟

أجابـه:

- إلى الخدمة أيُّها الغبي، هناك سوف تتمنى لو ضحي بك على تلك الحياة

لقد علم كبير المستكشفين أنه لن يقدر على ذلك الغلام، ففضل أن يبعده عنه بقدر المستطاع، فأرسله إلى كبير المستضعفين ليتولى أمره. كانت الخدمة بالنسبة إلى فارس الجحيم بحد ذاته. ولكن من جهة أخرى أعطته فرصة التسلل والتلصص على من يريد، فمن ينتبه لأمر خادم؟

***

الفصل الحادي عشر..

كنان ..

يهدف المشروع إلى تبني فكرة أن الإنسان يستطيع خلق بشر خارقين، فجعلوا معتزًا رئيس القسم، وأوكلوا إليه تطوير البحث.

بدأ المشروع كأي مشروع سادي عديم الضمير ومنافٍ للإنسانية، ووظف من هم على شاكلته كل من عدم ضميره، اختارهم بعناية فعليهم يقع أغلب المسؤولية لذى يجب عليهم التزام الصمت. شيد المكان بحيث يتصل مع القبة عن طريق جسر تحت الماء بحراس لحمايته، الطريف في الأمر أن كلا الطرفين لا يعلم ماذا يكون في الطرف الآخر، ولكن يعلم بوجوده.

بدأ البرنامج وهو مكون من خطوات مدروسة حيث تجعل من المنتسب إليها لا يفكر إنما يتبع الأوامر فقط، هناك مرحلة الهدم ثم البناء ثم الولاء المطلق، كان يدخل ضمن الإعداد عقارات مهلوسة وتدريب مكثف على القتال بجميع أنواعه دون رحمة ودون أي تردد وتفكير، كما بُثت على مسامعهم أغاني العزة والكراهية طوال الساعات الأربعة والعشرون، وزرعوا فيهم أيضا أنفسهم الفئة المختارة دونها ودون حمايتهم سوف تعمُّ الفوضى، وينتهي العالم نهاية مأساوية، فهم يقيمون التوازن في العالم فكما يوجد سلام يجب أن يقابله الحرب والدفاع. أما بخصوص الناس التي تعيش خارج القبة ما هم إلا قطيع من الأغبياء أفرادًا تائهين لم يصلوا إلى التنوير الذي وصلوا اليه، وكذلك يجب على القوي أن يغير العالم بيده، والضعيف من يستنكر ولا يفعل شيء.

كانت تعرض لهم صور الدمار والخراب والفجور التي تعزز من نظرتهم بأنه يجب عليهم أن يفعلوا شيئًا لتطهير العالم، فهم في حرب لمواجهة الشر، والخير دائمًا منتصر. فالعالم ينتظرهم ليحرروه من الطغيان، ويزيلوا الفساد. فهم الأمل الوحيد المتبقي في هذه الحياة، فهم الجنود المنتظرون لتحرير البلاد من الكفرة الطغاة.

عندما وصل كنان للمرحلة الأخيرة من التدريب أي بعد أربعة عشر سنة، اقترب منه المدرب، وطلب منه أن يأتي معه.

عندما انفرد به، قال له:

- هل تعرف أنك من الطلاب المجتهدين، وأنا أتنبأ لك بمستقبل باهر. سوف تكون من القادة في يوم من الأيام.

كان كنان يومئ برأسه، ولكنه لا يعرف كيف يرد.

- هل تدرك ماذا ينتظرك الآن؟
- الخلاص، فأنا مستعد.
- وهذا هو الحماس الذي كنت أنتظره. ولكن أريد منك أن تكون مع حراس القلعة.
- ولكن هذا أمر ليس فيه أي خلاص ولا تضحية.
- أنت لا ترى ما نراه يا فتى، فبدخولك للحراسة سوف تتعلم ترويض البشر، وتتعلم السيطرة على نفسك. نفذ الأمر دون أسئلة، فنحن نعرف ماذا نفعل.

ثم رفع السماعة، وطلب رئيس الحراس، وسأله أن يأخذه معه متدربًا.

كان كنان يمشي خلفه دون أن ينطق بحرف، فقد تعلم أن السؤال ممنوع، والتفكير والشك ممنوع. فقد شاهد واختبر كيف كان عقاب التجرؤ والسؤال، فإما التعذيب أو الموت. وقد كان الصندوق أسوأ أنواع العقاب فقد اختبره بنفسه.

حدث ذلك في يوم بائس لا يتمنى تكراره مرة أخرى كانت القاعدة تقتضي الولاء فقط للقادة ويجب اتباع التعليمات ممنوع التعاطف مع أين كان، فلا مكان للضعفاء هنا

ولكن كنانا كسر القاعدة عندما شاهد فتى يرتعد من الخوف وعيناه حمروان لا يتوقف عن البكاء فالتمارين كانت أكبر من طاقته ورغم ذلك استمر القائد يصرخ في وجهه، وينهال عليه بالضرب إلى أن فقد وعيه عندها استشاط غضبًا القائد، وكأنه أُغمي عليه بإرادته فشرع يضربه أكثر كان الجميع في سكوت تام وخوف مما يراه ولكن لم يستطع كنان السكوت عندها صرخ بكل ما أوتي من قوة وقال:

- توقف، ألا ترى أنه مريض؟!

التفت القائد وعيناه تشعان من الغضب وقال مزمجرا:

- ماذا تقول؟ أتتجرأ وتتكلم معي وتعلمني ماذا أفعل أيُّها النكرة؟!

لم يعرف كنان ماذا يقول، ولكن القائد رفعه من ملابسه فقد كان رياضيًا بامتياز طويل القامة مفتول العضلات ويديه التي هي أشبه بآله عنها كعضو من أعضاء الانسان بتلك اليدين ضربه مرة فقد بعدها وعيه، وبصوت عالٍ أشار إلى اثنين من الطلاب، وأمرهم ثمَّ بحمله وإلقاءه داخل الصندوق، ذلك المكان المرعب الذي كان يخاف منه كل ساكني الثكنات، وهو عبارة عن صندوق حديد متر في متر لا يوجد فيه منفذ إلا من فتحة واحدة عندما تدخله لا يمكنك الحراك.. مظلم، رائحة القيء وفضلات الإنسان تكاد تخنقك..

جلس فيها حوالي أربعة أيام يأكل وينام ويقضي حاجته في نفس المكان يرتعش من البرد حتى كاد يجن من العزلة والخوف إنهم سيتركونه هنا إلى أن يموت ورغم قصر المدة فقد كانت كافية لترويضه وإلى اليوم، وكنان يخاف الأماكن الضيقة. ومنذ ذلك اليوم تعلم أن يطيع، ففي النهاية ليس هناك مهرب. فهو في قاع المحيط.

عندما وصلوا إلى مقر السجن كان المكان شبه مظلم، رائحة نفاذة تملأ المكان، وأنات تصدر من الزنزانات. سأل نفسه: من أين أتوا بكل هؤلاء الناس؟

كان رئيس الحرس فارع الطول بفمه البارز، وأسنانه الصفراء بحواجبه الكثيفة، ونظراته كأنه الأفعى بعينها، ووجهة الصلب الشاحب، يحمل عصاه الغليظة يطرق بها على الأبواب، وهو يضحك. توقف والتفت إلى كنان، وقال:

- اليوم سوف تكون لديك السلطة التامة على أرواح هؤلاء الحشرات. لديك في هذا مكان تختار منهم من يستحق أن يقتل بكل بساطة من لا ينفذ أوامرك، أو من لا تعجبك نظرته. هل علمت الآن لم نحن مهمون. لقد أتوا إلينا من الأقسام الأخرى الداخلية؛ لأنهم غير قابلين للتعلم، ونحن هنا نعيد تأهيلهم، أو ببساطة نتخلص منهم.

وعند نهاية الممر دخلوا المصعد وكبس على الزر على الرقم خمسة، هناك وجد قاعة الطعام المخصصة للموظفين وبهذا الدور يسكنون، الأصوات عالية، والكلام البذيء يتفوهون به من دون حياء. عندما نظر إلى أقصى يمين المكان وجد ثلاثة رجال عراة مكبلين بأسلاك شائكة، رؤوسهم مغطاة، ينزفون من كل جزء في أجسامهم، وآثار الضرب بادية عليها.

صرخ القائد وقال فرحًا مهللًا:

- اليوم نكتفي بهذا القدر من اللعب. أعيدوهم إلى أماكنهم، فقد أكملوا الأربعة وعشرين الساعة الخاصة بالترحيب.

التفت كنان، وتساءل في حيرة:

- ماذا يعني؟

قال والضحكة لا تفارق وجهه الكريه:

- إنها جلسات تعذيب. يقوم كل سجان بضرب السجين الجديد، وتعذيبه، ويستمر هذا دون أكل مدة أربعة وعشرين ساعة، فإذا مات كان ذاك الهدف، أما إذا عاش بعد هذه الساعات من التعذيب يصبح شخصًا مسلوب الإرادة نفعل به ما نشاء.. فالخوف عندما يتلبس الإنسان يشله ويلغي عقله وتفكيره فيصبح إمعة مسيرًا لا يرى ولا يسمع إلا من سيده، أفهمت؟

نظر بحزن مطرق رأسه وأجاب:

- نعم، سيدي فهمت.

***

الفصل الثاني عشر..

.. موينغولو (الأعضاء الشافية)

في قسم آخر وضع مومبغولو. وما حصل معه كان الجحيم بعينه جعله ينكمش على نفسه، فقد شاهد أناسًا تئن ألما. الجميع لديه عضو على الأقل يقده. كانوا جميعًا مشوهين. ويعانون الهزل والضعف، يعاملون كأنهم حيوانات داجنة، وكان ليس لهم أي قيمة. يُبتر منه عضو أو عضوان من أي واحد في المجموعة، ويترك ليزوج بعدها، ويربى الطفل على أنه منتج يدجن للمستقبل.

في أحد الأيام قرر مومبغولو وبعض الشباب الذين معه أن يهربوا، لم يكن من النوع الشجاع ولكن الخوف من الموت جعله يريد أن يفر بجسده فبعض الأحيان الخوف يولد الشجاعة.

كانت الفكرة سهلة وساذجة في نفس الوقت تترتب على الخطوات التالية: يأخذوا المفتاح من الحارس يحرروا الجميع ثم يبحثوا عن المخرج ولكن الذي لم يتصوروه أنهم عندما نجحوا في أخذ المفتاح لم يتوقعوا ما وجدوه أنفسهم داخل متاهة، ولم يبعدوا كثيرا فقد ألقي القبض عليهم، عندها عاد إلى الأسر، فعُذب، وبتر له ساقاه ليعود حيوانًا داجنًا، يزوج لإحدى الفتيات الموجودات في العنبر. لم يكن يعرف لم بترت أعضاؤه، كان دائم السؤال لم كلهم لديهم نفس اللون الأبيض والسمات نفسها التي يجدها في نفسه. بعضهم أصيب بالعمى تماما يتلمس طريقه كان هو في طريقة إلى العمى فنظره ضعيف جدًا ولا يكاد يرى ما حوله.

بعد أشهر من الحادثة أتى بعض الحراس، وأعد له طعامًا فاخر وطلبوا منه الاغتسال، وعندها قادوه إلى غرفة ثم أجلسوه على السرير كانت الغرفة مكونة من سرير الذي جلس عليه ولا يوجد بها أي شيء آخر، رحلوا وتركوه وهو يشعر بالحيرة فكان هناك عشرات الأسئلة تدور «لِمَ هذه المعاملة الحسنة، رغم أني عصيت الأوامر. هل سيقتلونني؟» كان القلق منثور عليه فأصبح منكمشًا وتقلص على نفسه من الخوف. فطن لم يريدون عندما دخل عليه رئيس العنبر رجل في الثلاثين من العمر يكتسي جسده اللون الأبيض بملامح إفريقية واضحة شعر رأسه وحتى رموش عينيه بيضاء ملامح البؤس والألم بادية عليه لم يكن حتى ينظر إليه وكأنه يشعر بالعار أو الذنب وقال:

- موينغولو، هذا السمك أليس كذلك؟
- نعم، هذا اسمي.
- أتعلم كم عمرك؟
- لا.. فمنذ اليوم الذي دخلت فيه هنا وأنا لم أعد أحسب الأيام...
- حسنًا، حسنًا.
- هل لي أن أسأل لم تعاملونني هذه المعاملة الحسنة! ولماذا أنا في هذه الغرفة تحديدا؟ أصدقني القول هل ستعدموني؟

ضحك ضحكة باهتة وقال:

- هل تعتقد أن من يعدم يكون له تلك الميزة؟ إنك هنا في مهمة.

بلع ريقه وتعرقت أطرافه وبدأ يرتجف من الخوف، وحتى أنه لم يستطع الكلام فقد جف حلقه واضطرب وقال بعد فترة من الصمت:

- وما هي هذه المهمة؟

لم يتكلم بالاقتراب منه، وأخذ ذراعه ثم حقنه بمادة لا يعلم ما هي وعندما انتهى من ذلك خرج مرة أخرى، وعاد وفي رفقته فتاة لا تتعدى الرابعة عشر من العمر، تتصف بنفس ملامح مونغولو متوسطة الطول تلبس فستان أبيض ناصع نظيف كأنه لا ينتمي إلى المكان، وهي كان جسدها يريد أن يختفي فاحتل أقل قدر من مساحة الفستان شاهبة هزيلة عيناها رغم جمالها إلا أنهما غارقتان في ظلمة مطفأتين من أثر البكاء ورغم ذاك ما شده أنها كانت طوال الوقت تنظر إلى الأسفل كأنها تريد أن تكون في مكان آخر تحاول تتجاهل المكان والزمان. عندها التفت رئيس العنبر وقال أمرًا:

- هذه الفتاة ستكون وعاءك.

ودفعا إليه دفعًا حتى أنها سقطت على السرير، ولم تصدر منها أية ردة فعل سوى أنها استوت بجلستها واستمرت في النظر إلى الأسفل نظر إليها ونظر إلى رئيس العنبر وقال:

- وماذا تعني بوعائي؟
- لقد قررنا لك هذه الفتاة؛ لتنجب منها.
- أتعني زوجتي.

ضحك وقال:

- إذا كان هذا يريحك.. نعم زوجتك ولكن لفترة معينة.

اقترب رئيس العنبر فقد شعر أنه تمادى مع الفتى، جلس بجانبه وقال:

- عزيزي مومنغولو، هذا جزاء من عقابك لقد تحولت إلى حيوان داجن في هذا الجحيم، عقابك أنه سوف يقدر لك أن تنجب أطفالا، ولكن لا يقدر لك أن تحملهم أو تسميهم لن يتسنى لك حتى معرفة ملامحهم لأنهم عندما تنتهي مهمتك سوف يؤخذ منكما أطفال سوف يربون ويصبحون حيوانات داجنة أخرى لأن أعضاءكم ونسلكم أنتم الالبينو نفيسة ومطلوبة في السوق. فلدى بعض الأغنياء في الدول الإفريقية والآسيوية معتقد أن أعضاء المصابين تشفى من الأمراض، وتعدّ رقية لحماية البيت والمال من الضياع، أو السرقة..
(أمسك يديه يعتصرها بحنان وأكمل حديثه):
ليس بالأمر حيلة وسامحني فحتى أنا لا أملك من أمري شيئًا يا عزيزي وخرج.

انتفض موينغولو عندما علم بالأمر، ولكن لا مهرب من الموت، حتى إذا أراد ذلك فحياته الآن ليست ملكه، ولا عليه سوى الدعاء لتقريب موعد موته، بذلك يفقد حياته راغبًا سعيدًا بقدوم الموت. فليس الجسد الذي يموت أولًا، ولكن إذا فقد الإنسان معنى حياته، تفقد الروح تمسكها أيضًا بالحياة، فتتلاشى وتعود إلى العدم.

كانت هي دقائق معدودة، وكأنه في حلم عندما شاهدها تخرج شيئًا كان مختبأ داخل شعرها وهكذا وبسرعة نحرت نفسها الدماء في كل مكان كان بإمكانه الصراخ لينقذوها ولكن فكر ثانية وقال لنفسه: إنها الطريقة الوحيدة للخروج من هذا العذاب، فاقترب منها وهو يرتعش وأمسك بالعضمة التي سُنت إلى أن صارت حادة كالسكين، ونحر عنقه هو أيضًا في ذلك اليوم أسلم موينغولو روحه، وهو سعيد.

***

الفصل الثالث عشر..

.. في الوقت الحالي

كان المستشار يبحث أي خيط يدله على المجرم الحقيقي، رغم أنه اختلفت قناعاته، ولكن العدل أن يأخذ مجراه ويجب على المجرم أن يأخذ جزاءه..

كان المستشار يجالس مجموعة من أفراد القبة يتباحثون فيما يفعلون. طرق الحارس الباب ليعلمه أن طلب عادل يستأذن الدخول فأذن له، كم شعر بالخجل! ولكن لم يكن يريد فعلا لقاءه فهو طوال هذه المدة وهو يحاول تجنبه قدر المستطاع، ومع تفاقم الأحداث لم يتسنَ له أن يلتقيان وحدهما كما في السابق ولكن ها هو وجهة لوجه معه بعد أن خرج الجميع، ولكنه مهما حصل يبقى أخيه فما أن رآه حتى رحب به وناداه بأحب الأسماء، فهو أولا وأخيرا أخوه تقدم إليه وأجلسه بجانبه وما إن جلس بدأ عادل بالحديث، وقال مباشرة سوبنزر:

- إلى ماذا توصلت تحقيقاتكم هل عرفتم من القاتل؟
- لا، ولكني لن أهدأ حتى أجده.
- وماذا عن شؤون المملكة؟
- وماذا عنها؟ الأمير تحت وصايتي شرعًا، وسوف تكون الأمور على ما هي عليه إلى أن يستجد الأمر ونقبض على القاتل، عندها سوف يتوج الأمير علنًا ويمسك الحكم.
- ولكنه صغير، ولا يعرف كيف يدير الحكم.
- أنا سوف أكون بجواره.

- دعنا من هذا.. كلنا نعلم أنك لا تستطيع الحكم، ولا تستطيع تدبر أمورك يجب أن يمسك الحكم من هو أقدر وأصلح بالأمر.
- وماذا يدور في خلدك أيُّها الأخ العزيز.

نظر نظرة فاحصة لها معناها وقال:

- دع لي القيادة والحكم، دع مجتمعنا يقرر من يريد أن يحكمه فأنت تعلم أننا لدينا المواصفات والذكاء لنحكم فالجحافل وأهل القبة والمستضعفين لا يستطيعون حكم أنفسهم بالفطرة فهم أناس جبلوا أن يكونوا خدمًا، أما نحن فلدينا كل مواصفات الحكم.
- هل تعتقد فعلًا ذلك.
- نعم.
- ولمَ أنت أحسن من هؤلاء الناس أخبرني؟

تحير من السؤال فقد أتاه على حين غفلة، فغضب من السؤال، وقال وهو يرتجف من الغضب وقال:

- هل لديك أي شك في ذلك؟ أم تريد أن تساوينا مع هؤلاء الرعاع؟
- نعم نحن لسنا أحسن منهم أيُّها المغرور المتذاكي.

احمرت عيناه، ولكنه قرر أن يهدأ، فلم يكمل حديثة والغضب في هذا الوقت يجب أن يتبع سياسة الهدوء، فعاد إلى طبيعته مرة أخرى وقال:

- اسمع.. دع الأمير في مكانه إذًا، ولكن دعنا نقود دفة المجتمع بذلك يفوز الجميع.
- لا أستطيع أن أوافقك على ذلك فالشرعية للأمير وأنا سوف أكون بجانبه نعلمه، ولكن القرارات سوف تصدر منه ثم يا أخي ماذا تريد بالحكم نحن نعيش في رفاهية الحمد الله لماذا الطمع؟

عاد إليه الغضب مرة أخرى، وقال ويديه تحوي على الطاولة التي أمامه:

- أنت لا تفهم شيئًا، السيطرة أقوى من الرفاهية من صغرك وأنت في عالم المثاليات وعبدًا للقوانين لذا لن تفهمني أبدًا.

كان القائد أخا للمستشار الأكبر، ويعلم تمامًا مدى العداء الذي يكنه له فقد اختاره الملك أن يصبح مستشاره، بينما أعفى أخاه من المهمة بسبب إهماله، وقسوته الشديدة على أهل القبة ،فقد كان يحب السيطرة وبفطنة الملك علم أن طموحه عاليًا، وأنه يطمح إلى خلافة العرش ولكنه بحكم أنه قريب الملك من الدرجة الثانية لا يحق له الحكم، وإنما أقصى ما يصل إليه من سلم الترقيات هي أن يكون

مستشارًا، وعندما وصل إلى القيادة كان أمله كبيرًا بأن يصبح مستشارًا، ولكن جاءت المفاجأة عندما أصدر قرار التعيين، أسرّها في نفسه حاول أن يتحدث مع الملك، ولكنه لم يعطه الفرصة أو المجال حتى للحوار.

عاد المستشار إلى مذكرات الملك عله يجد فيها الخلاص، رغم أنه أصبح الآن على يقين أنه كلما توغل فيها أكثر كلما تداعت حياته وإيمانه أكثر.. لم يكتب الملك في المذكرات كثيرًا كان فقط يكتب الأحداث المهمة في حياته فقط، فقصة تولية الحكم موجودة وقصة يتمه أيضا موجودة قصة المطالبة بقتله وهروبه موجودة وآخر موقف له هو والده.. ابنته نورة..

تلك التي كان يتذكرها جيدا تلك الفتاة التي لامست قلب الجميع بحنانها ومحبتها كان يعلم أنها ماتت بمرض عضال أصابها..

الفتاة التي حزن عليها الملك أيما حزن، ومن بعد موتها لم يعد على طبيعته، ولكن ما أدهشه واقعة موتها التي كانت مذكورة في تلك المذكرة التي شعر أن عالمه تزعزع فقد كتب تفاصيل مروعة عن موتها..

فكتب: مذكراتي العزيزة:

أتمت نورة عامها الخامس، ما أجمل ابتسامتها! كل يوم استغرب كيف هذا المخلوق الملائكي خرج من نسلي، أنا الإنسان الذي تحول إلى وحش دون ضمير، صحيح أني استفدت ولا أشعر بالندم على

ما يحدث لي فكل إنسان مات استحق الموت أو كان مصيره الموت فالناس عبارة عن قطيع؛ إذا لم تحكمهم بيد من حديد سوف يتحول الحكم إلى غوغاء فلا وجود للديموقراطية فكيف تستطيع توحيد العقول، ولكل طرف له وجهة نظره الخاص.

في عيد الأرواح وكعادته السنوية أتاني المعلم ورغم معرفتي به، ولكن كان كلما حضر اقشعر بدني رغم هيئته الوقورة وتلك الملابس التي تجعلك تعتقد أن هذا الإنسان زاهد في هذه الحياة.. البياض يكسو شعره الطويل.. نظرته الحادة فهو لا يكرر الأمر مرتين.. إن أمر بشيء يجب أن ينفذ وإلا فسيكون العقاب وخيمًا.. عند رؤيته قبلت يديه وجلس مباشرة على مقعدي كالعادة راجعنا بعض الأمور العالقة الخاصة بالقبة والتقارير اللازمة للتجارب التي في مختبراتنا، وكيف هي تطوراتها ومدى نجاحه، فإما أن يوافق ويقترح الخطة القادمة للتجارب أو يعد خطة أخرى لهم عندما انتهينا التفت إلي وقال:

- ماذا سوف تقدم لي هذا العام.
- (نظرت إليه وأخبرته) كالمعتاد يا سيدي خمسة أطفال.

قال بخبث مقيت:

- لا.. فأنا لست مهتمًا بهؤلاء الأطفال.
- ماذا ترضي الأرواح هذه المرة؟ فطلباتهم لا تنتهي وكل سنة نلبي طلباتهم المجنونة، نملة ذكر قطة، ولدت في يوم معين، وماذا يريدون هذه المرة؟

- ابنتك نورة.

كانت الدهشة بادية على وجهي، فقد سرت الرعشة في أنحاء جسدي حتى إني لم أستطع إمساك الكأس الذي بيدي فسقط على الأرض.. اقترب مني وقال بصون أشبه إلى فحيح الأفعى:

- أعرف أن الأمر صعب عليك، ولكن تعرف ما قدمته لك وكيف أحميك، وتعلم أن لكل طلب نطلبه له هدف وكل شيء يأتي لسبب.

وبدأ يعدد الأمور التي حصلت لي إلى اليوم، وكيف أني بلا توجيهاته لم أكن ولم أستطع تحقيق ربع الذي أنا فيه، وبذلك يجب علي أن أقدم أعز ما لدي، وعاد وأصر على التضحية، ولكني أخبرته بكل رجاء على الأمل أن يرضى وأخبرته:

- سوف أهدي لك نصف الذي كسبته هذا العام من بيع المعادن والمجوهرات المستخرجة من قيعان البحار.

ضحك وقال:

- هذا ليس أعز ما عندك، فأنا فعلا آخذ نصف ما تجني أيها الغبي...
- حسنا.. اسمع.
- سوف نريق الدماء هذه السنة لإرضاء الأرواح.

قال وقد بدأ يمل من النقاش:

- ولا هذا سوف ترضي الأرواح.
- إذًا سوف أضحي بالجميع حفاظًا على ابنتي.
- ليس لديك الأمر في ذلك، واستمرار حكمك مربوط بهذا الأمر.

ودون تردد قلت:

- لا أريد الحكم، إذا كانت ابنتي سوف تكون الضحية.

كنت متفاجئًا من نفسي عندما قلتها، فقد تعلقت بها وكنت على استعداد بالتضحية بالمملكة كلها لكي تعيش ابنتي نورة حاولت أن أعطيه خمسة أطفال آخرين في عمرها، ولكن عبثًا حاولت.. كان مصرًا ولا يريد حتى مناقشة الأمر، وأخبرني أن الأمر خرج من يده، وأن الأمر يجب أن ينفذ ليس بيدي أي حيلة، سكت ولم أعقب لأني علمت المناقشة معه عقيمة عندها عدت إلى حجرتي وقررت الهروب ولكن قريني الخائن أبلغ عني في اللحظة الأخيرة، وأوقفنا..

أُخذت نورة من بين يدي، وعدت إلى حجرتي، ولكن في ذلك اليوم قد سلط علي مرده كانت مهمتهم هي تعذيبي كان العذاب لا يطاق فأنا أجبن من تحمل الألم، ومرعوب من فكرة الموت، فلو كان الأمر بيدي لحاولت أن أعمر لآلاف السنين، وهذا إلى الآن وأنا أحاول خداع الموت بالتقرب للأرواح، ولمعلمي في يوم الأرواح ويوم

الدماء ما إن انتهت مراسم عيد الأرواح حتى عدت أمثل الخنوع للمعلم ينفذ كل ما يطلبون الذي أراحني قليلا أني لم أشاهد موت ابنتي فقد اكتفى المعلم بقتلها، وإخباري بذلك.

الآن استوعبت أني لست ملكًا إنما أنا أسير لتلك القبة اللعينة فلا سبيل لي بالخروج إلا الموت، حاولت معاودة حياتي، ولكن الغضب كان يزداد، لم أستطع النوم أو الأكل كان ضميري وقلبي يؤلمني كل يوم أرى ابنتي أسمع صوتها أتذكرها في كل شيء، فقدت الرغبة في الحياة، وفي يوم من الأيام وبعد شهور من الحادث استدعيت المعلم لأخبره أني أريد الانسحاب من المنظمة لا أريد شيئًا كل ثروتي سوف أقدمها فقط يدعني أذهب.

صرخ وقال:

- هل تجرأ على عصياني؟! لا تنسَ بأني أنا الذي صنعتك.
- ولا تنسَ أيضًا أني نفذت لك جميع ما طلبت كنت طالبك المطيع.
- أنت لم تكن طالبًا قط أنت كنت عبدًا، هل تظن أني سوف أشرف أي بني آدم بذلك الشرف؟ أيها الإنسان عديم الفائدة سوف تنفذ ما أطلبك به صاغرًا.

احمر وجه الملك غضبًا وأصبح يصرخ بأعلى صوته:

- لن أنفذ لك أي شيء من الآن فصاعدًا لقد كفرت بالذي أتيتني به.

لم أكمل جملتي حتى علقت في الهواء وأصبحت أعضائي الداخلية تشتعل من الألم شعرت بعجزي، ولكن هذه المرة كنت أريد الموت ولأول مرة في حياتي لم أكن أخاف الموت فلا شيء يستحق العيش من أجله.

عندما شاهدني بالإصرار خفف من حدة أسلوبه، وقال:

- لقد ضحينا بالأنثى ليأتي الذكر ما إن سمعت بذكر سوف يخلفني في السلطة ولد من نسلي فرحت، ونسيت كل شيء ها أنا أنتظر مولودي الذكر سليلي الأول سوف أحميه وأحبه من كل جوارحي هذا ما سوف أنفذه هذه المرة لن يستطيع أي مخلوق بأن بأخذه مني.

***

الفصل الرابع عشر..

.. ضحية أخرىٰ تفتح الجراح

انقلبت الموازين رأسًا على عقب عندما عاد الرعب، والخوف يحوم في القبة، ففي غضون أسابيع فقط وعندما كانوا يحاولون الإمساك بالمجرم الذي قتل الملك، وفي خضم هذه المعمعة، وجد أحد الحراس جثة مكفية على الأرض، لا يعلمون كيف حصل الأمر ولا مَن فعله. اكتشفوا أنها تعود إلى جماعة السماسرة. عندها طلب رئيسهم من المستشار الحضور على الفور. بادره قائلًا حين وصوله:

- لقد قتل ابن لنا على يد أحد المستضعفين.
- وكيف علمت بذلك؟ لا يوجد لديك دليل لاتهامهم بقتله.
- لدي كل الأسباب التي تجعلني أشك فيهم. سوف أقتلهم جميعًا. لن أدع أحدًا منهم يعيش.

كان الشرر يتطاير من عينيه، وهو يتحدث حاول المستشار أن يهدئ من روعه، وقال:

- هل لك أن تهدأ لنتناقش بعقلانية حول الأمر؟
- أنا وجدت حول الجثة محراثًا. لقد كان ملقى هناك بجانبها، ولا يستخدم المحراث سوى المستضعفين.
- ولكن أنت تعلم أن المستضعفين لا يدخلون هذا المكان. وزد أيضًا أنت تعلم أنهم حتى وإن أدخلوا فهم القلة القليلة. وبعد تفتيش عميق لهم. أنت تعلم الإجراءات، فعندما يدخل الواحد منهم فهو يضطر إلى أن يخلع ثيابه، ويغتسل، ويلبس ملابس من عندنا خاصة بهم. أنت أكثر مني علمًا بالإجراءات.

- نعم، نعم. أعلم ولكنك، لا تعلم أنه من المحتمل أنهم أعطوا رشوة لأحد الحراس أو من هذا القبيل.

قاطعه:

- وبأي شيء يرشونه؟ فهم لا يملكون أي شيء.

تحرج من المأزق وقال:

- نعم، ولكني مقتنع أنهم من دبروا مقتل ابن أخي، ومقتل الملك أيضًا. سوف أقتلهم جميعًا. أنت تحاول الدفاع عنهم؛ لأنك ضعيف، وكلنا نعلم بقصتك أنت وتلك الجارية.

كان المستشار مصدومًا مما قاله القائد. حاول أن يقنعه بالقول والحجج، ولكن محاولاته بائت بالفشل.

خرج من المكان فليس هناك طريقة لإقناعه فهو يسير في طريق الطوفان الذي يحاول أن يجرف الجميع ويدمرهم معه.

دخل مخدعه وأعد لنفسه قهوة، وعندما ارتشف الرشفة الأولى تذكرها تلك الفتاة التي ما فارقت ذاكرته أجمل نساء القبة مروة ما أجمل اسمها تلك الجارية التي كثيرًا ما حلم بها.

تذكر أول يوم يراها فيه كانت تجلس على رجليها تنظف الأرض بعد أن سكب الأمير عليها الشراب الذي لم يعجبه، عندما لمحته يرمي الكأس على الأرض، أسرعت من فورها تحاول التنظيف، والأمير

لا يدعها وشأنها، إذ كان يجرها من ملابسها أو يضربها. كانت في كل الأحوال صامتة. وكان ما استرعى انتباه المستشار هي تلك النظرة، نظرة التحدي في عينيها وكأنها حيوان يريد أن ينقض على فريسته. كانت جامحة بطبعها. بعد أن انتهت من التنظيف نظرت وقالت:

- أي أوامر أخرى سيدي؟
- نعم، أحضري لي قدح من الشاي.

وعادت معها ما طلب، ولكن ما إن تذوقه لم يعجبه طعمه فقذف الشاي على وجهها، وكان يضحك بهستيرية. كرر طلب الشاي أربع مرات، وفي كل مرة يرمي الكوب على وجهها، إلى أن صرخت صرخة مدوية وقالت:

- يكفي أرجوك

أربكت الأمير، الذي توقف عن الضحك، والتفت إليها بحنق، قائلًا:

- ماذا قلت أيتها الجارية؟

كانت تبكي وترتعش كالورقة، وهو يصيح ويقف مستعدًا لعقابها ويقول:

- أعيدي ما قلتِه أيتها الجارية الحقيرة كيف لك أن تتجرئي وتتكلمي معي بهذه الطريقة سوف تكونين عبرة لكل من هم على شاكلتك.

عندها تدخل المستشار الذي كان شاهد على الحدث، وقال:

- دع الأمر لي يا مولاي سوف أشرف على عقابها بنفسي.

فأخذ الفتاة التي نشفت الدماء في عروقها من الخوف، فأدخلها غرفة الطعام، مسح دموعها، وقال:

- لا تعودي إلى هنا سوف يسوي الأمر، سوف أتكلم مع مشرفك لينقلك إلى مكان آخر تخدمين فيه.

كانت تنظر إليه في حيرة وامتنان، عندها سألته بعد أن تمالكت نفسها، وقالت:

- لماذا تفعل معي هذا؟
- لا لشيء.

نظرت إليه بشك، وهي تقول:

- جماعتكم لا يفعلون شيئًا بغير سبب، ولكن شكرًا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها مروة. تلك الفتاة المستضعفة فرغم أنها أسيرة الظروف، ومع ذلك كانت لديها روح حرة لا يملكها الكثير من أبناء مجتمعه.

تكررت الزيارات، كانت تتحمل الأمير، وتحتمل سوء معاملته، على أمل أن ترى المستشار. وكان المستشار يختلق الحجج كي يرى الأمير، فتطوع لتعليمه أمور الحساب، فقد كان أغلب المعلمين يهربون

من تعليمه. فقد كان بليدًا بما يكفي، ولا يراعي معلميه، ولكن لأجل عينيها كان يتغاضى عن تفاهاته. لقد توصل إلى أن المستضعفين أنفسهم لديهم أرواح وعقول، وأن الإكراه هو ما جعلهم يخنعون فعندما تواجه عدوًا لا رحمة لديه ولا أخلاق، ولديه القدرة المادية والعتاد فلن تستطيع مواجهته مع ضعفك وفقرك.

لقد تعلم منذ الصغر أنهم من طينة غير التي خلقوا منهم، وزرعوا فيهم أنهم مجبولون على أن يستعبدوا، وأن من الحكمة استعبادهم؛ لأن الحياة لا تأتي إلا بما هو جيد ومفيد للبشر. فكما أن للإنسان جسدًا وعقلًا، ومن الثابت أن الجسد هو من يتبع العقل، فإنه كذلك الحال لدى البشر والحيوانات وجميع الكائنات الحية القوي يحكم الضعيف؛ لأن الضعفاء لا يستطيعون حكم أنفسهم. وها هو يكتشف عكس الذي تعلم فقد وجد أن لديهم عقلًا تشبههم، لديهم القدرة على معرفة المواسم وما يناسبها من محصول، وكما أنهم اخترعوا أدوات بدائية لقياس الوقت، ومعرفة التاريخ.

وبدأ المستشار يعلم مروة الحساب والقراءة، فانكبت على التعليم، كظمآن وجد ما يروي عطشه.

ولكن السعادة لا تدوم فقد صادف في إحدى جلساته معها أن الأمير اقتحم المكان فجأة وكان أحد أعلمه بالأمر ليجده يقرأ للجارية، فاستشاط غضبًا من هذا التصرف، وظل يرغي ويزبد.

حاول المستشار أن يوظف خبراته حتى يسيطر على الموقف، إلا أن الأمير أسرع بإبلاغ الملك، الذي لم يتوان عن إصدار أوامره بتوقيع أقسى عقوبة على مروة، كما أمر بحبس المستشار، وجلده في كل يوم لمدة شهر كامل، وكان هذا عقابًا مخففًا لمن هم في مثل مرتبته.

أما مروة فقد عذبت وجرى وشم وجهها، وأمر الملك بوضعها في الصندوق بعد أن يعلموها درسًا لن تنساه في حياته وبعدها سوف تنفى من القبة. كان هذا العقاب الذي لم يكن يتصوره، فهذا يعني أمرًا واحدًا أنه لن يراها مرة أخرى ويعلم أنها سوف تعاني أشد معاناة.

كان العالم خارج القبة هو عقاب أسوأ من الموت. فلا أحد يعلم ما هو خارج القبة.

لم يهنأ المستشار بحبه، وعاش وحيدًا، مع أن من قانون القبة أن يتزوج الرجل والنساء على حد سواء في سن مبكرة، ومن يتجاوز الثلاثين من دون زواج كان يعاقب حد الحبس والجلد وكان يتقبل الجلد بكل رحابة صدر فهو لا يرى بعد مروة امرأة أخرى يستطيع أن يكون معها.

***

الفصل الخامس عشر..

.. اللقاء المر

انتبه المستشار إلى أن الأمير مختفٍ، ولم يحضر أغلب الاجتماعات، في البداية كان يعتقد أن ذلك لأن الأمير حزين على والده، ولا يريد أن يتحدث مع أحد، ولكن الآن يقتضى إلى أن يكون في الصورة ويعلم خلفية المشاكل التي تواجه مجتمعه، فهو أولا وأخير سوف يستلم زمام الأمور ويقود هذه السفينة، فذهب يستفسر عن الأمر ولكن الحراس اعتذروا منه وأخبروه بأوامر الأمير بعدم إدخال أحد إلى مخدعه.

مؤتمن هو الوحيد الذي يستطيع المستشار التحدث معه بحرية حيث وجد فيه الأخ والصديق وإضافة إلى ذلك فقد كان رفيق الملك، هو الوحيد الذي يستطيع أن يفهم ما يجري، فأفضى له بما توصل إليه وما حدث مع قائد السماسرة وحتى ما جرى مع أخيه، وأسرّ إليه أنه يشك بالجميع حتى أخيه لأن لكل منهم طرف ومصلحة في موت الملك، كان متوتر الأعصاب لا يكاد يستطيع الجلوس على مقعده فقال:

- تقتضي مصلحتنا أولا أن نبحث عن الخاتم إنه الشيء الوحيد الذي سوف يحمينا من الجحافل، فإذا وجدناه ضمنا النجاة وطاعتهم أما إن لم نجده فلا يوجد لدينا أي فرصة للنجاة الإنقاذ أنفسنا منهم. ففي السابق كان لكل منهم رفيق من الجحافل المائية، فهم بالنسبة إليهم الوسيلة التي ينتقلون بها، وهم الوحيدون الذين يستطيعون التنقل في المحيط الفسيح. لقد سلبت منهم نصف قوتهم الآن.
- وما هو الأمر الثاني؟

- يجب علينا أن نسرع في تنصيب الأمير لكي لا يستغل أخي أو السماسرة الوضع، ويسيطروا على المجتمع فإن أمسكه أحدهم كانت الطامة.

كان المستشار يتكلم، ومؤتمن ساهم فيما يقول.

قال المستشار أخيرًا:

- يجب علينا الآن البحث عن الأمير. فأنا أشعر أنه مفتاح اللغز. فاختفاؤه شيء يثير الريبة. دعنا نبحث عنه.

ذهبا إلى قاعة الملكة، وحاولا الاستئذان للدخول، ورغم الطرق المتكرر لم يفتح لهما أحد، حتى الحاجب لم يكن على باب الغرفة. خيل للمستشار أن المكان خالٍ من السكان، فلا يوجد صوت. بالعادة يصدح صوت المغنيات، وضحكات الفتيات داخل الحرملك، ولكن اليوم لا يوجد أحد. لا الحاجب، ولا أصوات الأغاني. وعندما دخلا كانت المفاجأة.

لا يوجد أحد، كأن الناس هجروا المكان.

كانت المفاجأة أنه لا إنارة، فقد كانت مفاتيحها مغلقة، حتى الملابس لم تكن موجودة في الدواليب. التفت المستشار إلى مؤتمن، وصرخ مرعوبا:

- لقد هربت القاتلة. الآن أنا متأكد أنها هي القاتلة، فلديها دوافع لقتل الملك. ليتني أمسكت بها من قبل. لن تفر مني، سوف أعثر عليها، وأنتقم. فهروبها من بين قبضتنا عار علينا.

وفي حين كان المستشار يتكلم، أشار إليه صديقه وقال بصوت أشبه بالهمس:

- صه اسمع.

أطرق السمع، وفعلًا سمع المستشار صوتًا يشبه الأنين، وعندما تتبعا الصوت، وصلا إلى مخدع الأمير فوجدوا المفاجأة كان الأمير غارق في بركة من الدماء. كان جسده يطفو داخل بركة السباحة.

لقد تُرك حتمًا ليموت. رفعا الأمير، حاولوا أن يوقفوا النزيف بعد أن طلبوا من أحد الحراس أن يستدعي الطبيب، وفعلًا عندما أتى الطبيب باشر من فوره بعلاجه. ولكن كانت جروحه عميقة ومميته، ومن الواضح أنه لن ينجو من هذه الإصابة، كان يحاول الكلام بصعوبة، ولكنه أخيرا أشار إلى المكتبة التي تزين غرفته وتأخذ حيز الجدار كاملا، وكانت آخر كلماته:

- اغفروا لوالدتي، ودعوها تعيش.

وهكذا انتهت حياة الأمير الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.

عندما فتشا المكتبة لم يكن في تصورهم أنه خلفه يقع ممر سري يؤدي إلى طريق مظلم كأنها دهاليز يتخللها سلالم، كانوا يسيرون وهم لا يعلمون عما إذا كانت لها نهاية أم لا لهذه المتاهة. وعندما انتهيا من الهبوط تفاجآ حين وجدوا أناسًا شبه عراة يلبسون ملابس المستشفيات. البؤس والجوع باديان عليهم.

البرد قارس، والإضاءة خافتة، والرائحة نفاذة، خليط من القيء ومخلفات الإنسان. كان دائمًا يسأل نفسه: «أين يذهب العاملون بعد انتهاء دواماتهم؟» ولكن لم يكن الأمر مهمًا كثيرًا ليتحرى عنه. ولكن لم يتوقع ولا حتى في الخيال أن تكون هذه حياتهم. معظمهم من الأطفال والنساء، والرجال هياكل عظمية متحركة. لم يكن يرى تلك الفئة من المستضعفين، إنما كان يرى الأطفال. فقد كانوا هم خدم المكان. كلهم لا يتجاوزون العشرين من العمر، أما بقية الأعمار فلم ير منهم أحد.

كانت الأعين مركزة عليه، وفجأة وجد نفسه وصديقه قد جرى تكميمهما، وإلقاؤهما في إحدى الزنزانات. لقد كان قائد السماسرة هو من قام بتكميمهما فقد علم بأن الوقت قد حان للخروج من هذا الجحيم وعليه أن يخفي آثار هذه القبة بمن فيها ولكن المستشار حضر في الوقت غير المناسب نظر إليه نظرات الغضب والارتباك ولكن كان يعلم أنه مسيطر على الوضع.

- الآن، وقد عرفت السر لا يمكنني أن أخرجك من هنا.

- كيف وجدت المكان؟

عندما كبل يديه وربطهما على حافة أحد الأسرة، فك الكمامة، وأعاد سأله:

- كيف وجدت المكان؟

كان يغلي من الغيظ. فلم يكن يريد أن يعرف المستشار عن هذا الأمر الذي أخفاه الملك وقائد السماسرة عنهم. لم يكن يريد أن يخبرهم شيئًا عن هذا المكان، الذي تجرى فيه التجارب التي لا يستطيع الإنسان أن يجربها على البشر، بحكم القوانين، فأوجدوا هذا المكان الذي لا يخضع لأي دولة أو قانون؛ من أجل أن يعملوا من دون أن تحوم حولهم الشبهات.

- من هؤلاء؟
- إنهم عدة مشروعات نقوم بدراستها.
- لماذا؟ ألا ترى أنهم بشر يعانون.
- أنت لن تفهم. فمصير العلم بين أيدينا، ويجب على بعض الناس أن يعانوا لخير البشرية جميعها. قد كانت الأمور تسير حسب الخطة إلى أن أصبح الملك أسير أوهامه، وجن جنونه، لقد أصيب بجنون العظمة، وأصبح مؤمنًا بأنه مرسل من الإله، ولا أحد يستطيع أن يملي عليه الأوامر، وفي نهاية الأمر خرق الاتفاق بيننا وبينه حيث إنه يستخرج الكنوز ونحن

نبيعها، ولكنه أصبح يكنز ويحتفظ بالمال لنفسه، فأصبح خطرًا على المنظمة، فاتفقت أنا والملكة على قتله، ولكن كان هناك أمر لا نستطيع السيطرة عليه، ألا وهو الخاتم. لقد وجدنا أخت الجحافل المائية أو بالأحرى هي التي أتت إلينا التي تبرعت بأخذ الخاتم، والانتقام منه. لقد خدعتكم كلكم، فما تلك الخادمة التي شاهدتها مغطاة بالدماء سوى الأميرة الجحافل نفسها. (شعر المستشار بالدوار) كنا نريد إبادة المستضعفين بمكيدة قتل ابن أخي، ولكن لم تبتلع الطعم، فلجأت إلى الخطة الثانية، هربت الملكة، ووعدتها أنني سوف أؤمن لها الخروج هي وابنها، وقد اقتنعت وانصاعت لي، وهذا ما كلفها هي وابنها حياتهما، فالقاتلة كانت بين يديك طوال هذه الفترة، وأفلتت منك.

كان يتكلم، ويحاول تلقيم السلاح الذي بيده، فشعر المستشار أنه وصديقه على حافة الموت، وما إن رفع يده ليطلق النار حتى انقض كنان عليه بسرعة، وطرحه أرضًا، وأطلق النار.

وفجأة سمعوا صراخًا، فقد كان فارس يطلب منهم اتباعه، فالمكان سوف تبتلعه المياه. كانوا يجرون يحاولون إنقاذ الآخرين، خصوصًا أولئك الذين في السجون، وعندما دخل على عنبر كان يضج بأناس مشوهين، كان ينظر إليهم، وفي داخله سؤال كبير:

- كيف سأنقذهم جميعًا.

كانت الفوضى في كل مكان، ولكن في تلك اللحظة لمح مروة حب حياته ترتجف شبه عارية، لا تكاد تشعر بما حولها. العينان ساهمتان، وكأنها مغيبة عن الواقع. ضاعت تلك النظرة التي كان يحبها. لقد جنت تمامًا. اقترب منها، ونادى بصوت خافت: (مروة).

نظرت إليه باستغراب. لم ييأس، سألها:

- مروة.. هل تذكرينني؟ أنا صالح، حبيبك، معشوقك. (وأجهش بالبكاء).

كانت تنظر إليه، تتحسس ملامحه، كأنها غير مصدقة لما تشاهده. وعندها بدأت بالبكاء، كان يمسك يديها، وهي تمسكه بكلتا يديها، كأنها لا تريد الانفصال عنه، وكأنها غريق تعلق بقشة.

كان المستشار يسير خلف فارس والجنود، وهو لا يعلم إلى أين. حاول التحدث معهم، ولكن لا أحد يريد الإجابة عن أسئلته. كانت القبة على وشك الانهيار، كأن أحدًا دمرها. المياه تأتي من كل مكان.. كانت القبة تختفي.

أصبح الجنود يحثونهم على الإسراع، عندها علم أنهم سوف يصعدون إلى الأعلى، فبدأ الخوف يجتاحه، فقد كان العالم الخارجي عالم الشرور، وعالم الخطر. حياته بالقبة هي الأمان. عندها ساعدهم الجنود على الصعود على متن سفينة، وعندما ركب الناجون أعلى الغواصة في غضون ثوانٍ اختفى عالمه وحياته، كأنها حلم. هكذا أصبحت غير

موجودة. هكذا أصبحت حياته كأنها كذبة. لقد تلاعب به الجميع. لقد كان أضحوكة الكل. لم يقو على النظر إلى مروى، فقد كانت حالتها شبه مستعصية. لا يعلم ماذا فعلوا بها. لم يقو حتى على تخيل الأمر.

بعد يومين من الحادث ومن الصعود إلى السفينة، وبعد أن فحص الأطباء الموجودون، دخل رجل من هيئته يبدو هو المسؤول عن هذا المكان فما إن دخل حتى حياه الأطباء والجنود الذين في الغرفة سأل الرجل وهو ينظر للجميع وقال:

- من المسؤول عن هذه الجماعة؟

فأجابه المستشار:

- أنا يا سيدي الوصي المعني لولي العهد الجديد.

عندها طلب منه أتباعه عندما أقفل الباب وجلس خلف مكتبه الضخم وفتح ملفًا كان أمامه.

- هل تعرف من هو تقي الدين؟
- نعم إنه الملك أتوم.

عندما سمع الربان اللقب ضحك، كأنه سمع نكتة.

- ملك من؟ إنه مجرم حرب، لقد كان مجرمًا مطلوبًا من دول عدة. لم أكن أؤمن بالقوى الخارقة، ولم أكن أومن بها قبل أن أستلم هذه القضية. لقد رأيت وسمعت أشياء لا يمكن لأي

إنسان عاقل أن يصدقها، أو يراها. لقد كان سيدك مجرمًا لا ضمير له فقد أباد قرى بأكملها في إفريقيا فقط غير الدول الأخرى؛ ليستولي على مصادر الطاقة هناك. كيف لك أن تصدق ذلك المدعي؟ ألم تفكر في يوم؟ ألم تشك في أمره، ولو مرة واحدة.

كان يتكلم والمستشار يغلي من الغضب. فقد كان يتكلم معه، كأنه أحد الأغبياء. في النهاية لم يتمالك نفسه، وأخبره أنه ما لم يغير أسلوبه، فسوف يغادر.

- إن الإنسان عندما يكون في قلب الأمور، لا يمكن أن ينظر إليها بعيني الحكم المراقب. أنا عشت هذا العالم أما أنت فتنظر بعين أوراقك ومستنداتك، ولو كنت مكاني لما اتبعته فقط إنما احتمال أيضًا أن تعبده.

عندها توقف عن الضحك، وعدل جلسته، وأصبح يتحدث بكل جدٍ، فقال:

- أعتذر منك؛ فأنا أرى أنك شخص صادق، ولكن أريد أن أريك الوجه الحقيقي لذلك المدعي لقد كنا نبحث عن تقي الدين منذ ما يقارب العشرين سنة. لقد ارتكب كثيرًا من جرائم الحرب، وقتل كثيرًا على يدي جنوده الذين كانوا يطلقون عليهم جنود السماء. لقد كون لنفسه جيشًا لا يستهان به.

نهض من مكانه وجلس بجانب المستشار وأكمل حديثه وقال:

- لم نكن لنحلم باصطياده، فقد كانوا يظهرون فجأة، ويختفون فجأة. لا أحد يعلم كيف يظهرون أو كيف يختفون هكذا من العدم. لولا الله، ثم تلك المرأة التي ظهرت لي، تلك المرأة التي لم أر أحدًا في جمالها. ملابسها لا تدل على هذا الزمان، كأنها أتت من كوكب غريب. حسناء المحيا معتدلة القد لها عينان ساحرتان تلبس ملابس لم أر مثلها إلا في لوحات المستشرقين في القرن التاسع والثامن عشر قفطان أحمر اللون على حوافه تطريز بالذهب حتى لا أجزم أنه زين أيضًا بأحجار كريمة فقد كان يلمع لدرجة أنك تعتقد أنها لآلئ سرقت من السماء وخيطت في هذا القفطان جميل الصنع.. الذي لفتني في أمرها ذلك الخاتم الغريب الذي كان مزخرفًا ومخطوطًا بكتابات غريبة. أتت إلي من العدم فجأة وجدتها تجلس أمام مكتبي في البداية شعرت بالخوف وأيضا اعتقدت أني أحلم، ولكنها عندما أتت واقتربت مني علمت بأنها شيء حقيقي أخبرتني وقالت:
- أتعلم ماذا يسكن تحتك؟
- قاع البحر طبعا هل لي أن أعرف ما هو اسمك؟ ومن أين أتيت؟

- لا يهم من أين أتيت المهم أني سوف أدلك لمكان رجل كل العالم يبحث عنه

أردت أن أستدعي الضابط، ولكنها أغلقت الأبواب وقالت:

- لن يفيدك الأمر فلن يراني غيرك.

جلست ولكني لم أطمئن لحالها فكنت من شده الخوف ممسك بسلاحي وقلت وصوتي يظهر خوفي وقلت:

- ولماذا تساعدينا؟ وماذا تستفيدين من هذا الأمر؟
- لا يهم السبب، ولكن أعلم أن هذا الأمر سوف يفيدك شخصيًا، ولن تتضرر منه أبدًا.

فبدأت دون أن تلتفت إلى وجهي المرتبك الحائر بكل ما تعرفه عن القبة، وعن أهلها وعن ذلك المدعي تقي الدين في بداية الأمر، وعند الظهور الأول، لم أصدقها، وطُلب منها إما إثبات ما تقول، أو مغادرة المكان؛ لأنها في بادئ الأمر اختفت، ولكن بعدها بدقائق عادت ومعها وعاء من ماء أسود.

عندما طلبت مني الاقتراب منه، والنظر، فإذا بي أشاهد تقي الدين يداعب ابنه. رأيت القبة، كأني داخلها.

في البداية خفت، فلا أريد التورط في هذا الأمر، فمن سيصدقني إذا أخبرته بالأمر، فقد يعتقدون أنني جننت، وأفقد مصداقيتي أمام مرؤوسيّ. حاولت تجاهل الأمر، ولكن ما غير رأيي أنه أغار على قرية

من وطني، شرد من شرد، واغتصب وأعدم الباقي من القرية. عندها قلت أكان الأمر سحرًا أم شعوذة، فإنه على الأقل الخيط الوحيد الذي يدلني إليه، حتى لو كلفني ذلك حياتي ووظيفتي.

حاولت البحث والاتصال بتلك المرأة من جديد، وذلك لأنها أخبرتني بأنني سوف أحتاج إليها مرة أخرى، وأن ما عليّ إلا النظر إلى البحر باتجاه الشرق، وأقول بصوت عالي:

- اخرجي يا جحفلية الأصل، وقائدة المكان.

في البدء لم أكن أصدقها فشرعت أبحث بالطرق التقليدية، ولكن عبثًا. حاولت فليس لديها بطاقة هوية، ولا حساب في البنك، كأنها أتت من السراب، وعادت إليه. لم نكن نعلم أن حل اللغز يكمن بين أيدينا.

فقد أعدت فتح بعض الملفات التي تدور حولها الشبهات، وتعهد الرئيس الجديد بتنظيف المجتمع من الآفة التي تنخر المجتمع من فساد، وانتشار الإرهاب والقتل فمجتمعنا، ولا نعلم من أين ولا كيف يتم تجنيد هؤلاء الفئة من الناس.

كان هذا جل اهتمامنا، فقبضنا على شبكة كبيرة تتألف من قادة ورؤساء مجلس إدارة، ومجموعة كبيرة من تجار المخدرات، والرقيق الأبيض، وغسيل الأموال.

كانت لدينا مشكلة واحدة، إذ في كل تحقيق يأتي ذكر الملك في الأمر، ولكن دون معرفة الاسم الحقيقي له، أو وصفه، حتى أتت المرأة مرة أخرى، بعد أن فعلت ما قلت، واستدعيتها، فأخبرتنا أن الخائن مات، وإذا أردنا إنقاذ البقية، فيجب علينا اتباع الخريطة التي رسمتها لنا.

هذه المرة عندما أتت قبضنا عليها، ولكن بعد عدة ساعات في الحبس دخل الحارس ليقدم لها الغداء، إلا أنه لم يجد أحدًا. لقد اختفت مرة أخرى، ولا نعلم كيف هربت. ولأن اليأس قد تملكني، ولأن المعقول في هذه الحالة لا يطبق، أخذت الخريطة، وتتبعت المكان، إلى أن وجدنا هذه الجزيرة التي صنعها الإنسان الغربي.

لم يكن فيها أي معلم حياة، كانت قاحلة إلا من هضبة عليها باب تفتح تجد خلفها مصعدًا. هذا المصعد ينزل إلى القاع، هكذا حل اللغز.

- هل لك أن تخبرنا كيف كانت حياتكم في القبة؟ وكيف عشتم فيها كل تلك السنين؟

جلس المستشار صامتًا مع أن الربان سأله السؤال نفسه ثلاث مرات، ولكن دون فائدة. فقد فضل الصمت. كانت أسئلة كثيرة تدور في ذهنه. هناك أحداث الآن يقوم بربطها مع بعضها. إنه لو فكر قليلًا لفهم أنه مخدوع.

في تلك اللحظة سمع الجميع صرخة مدوية، فأسرع ليجد مروة غارقة في دمائها، وبين يديها سكين.

كانت مروة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وبدت أقوى مما كان يتصور. جرى إليها، ورفعها.

كان يهدهدها كالطفل علها تستيقظ، ولكن كانت قد أسلمت الروح، فظل يحتضنها ويقبلها بجنون، وهو مذهول.

كان يمسك بها بقوة، كطفل يتشبث بأمه، فشل الجميع في تخليصها من قبضته، حتى جاءت ممرضة وحقنته بمهدئ، فلم يشعر بنفسه إلا وهو على السرير مقيدًا. استمر يبكي بمرارة، وكانت مشاهدة التلفاز سلواه الوحيدة، كانت أخبار الحروب والنزاعات والضحايا التي تتساقط يوميًا كفيلة بزيادة تعاسته وحزنه.

يجعل حياته أسوأ فهناك حرب في منطقة تدعى سوريا وحرب أيضا في اليمن وتفجيرات في العراق ومجاعة في الصومال ومالي.. والسودان على شفير أزمة اقتصادية كان ينظر إلى الأمر غير مصدق.

- لقد كذب علينا الملك في كل شيء. نعم لقد عشنا أكبر كذبة. لقد سيطر علينا معتوه دكتاتور. ظلمنا، وظلم نفسه، (قال كنان، وهو يشاهد التلفاز مع المستشار).

قال فارس وهو يقف على سقف الباخرة:

- أريد أن أخبركم بشيء خطير. لقد شاهدت من قتل الملك، وشاهدت كيف قتلوه، ولكنني لم أفعل شيئًا، لأنني أنا أيضًا لو لم تسبقني إلى قتله تلك الفتاة، لكنت قتلته بنفسي.

مضى قائلًا:

- الآن أستطيع أن أعود إلى دياري، وأنا فخور بما فعلت. لقد تطلب الثأر من أخي أعوامًا كثيرة إلى أن وجدت الجحفلية منذ عدة أعوام، وهي في حال يرثى لها. فأنا مع قدراتي التي تعلمتها من والدي أستطيع أن أبحث عن المفقود، ووجدتها تعاني في ذلك الكهف، فكنت عينها التي ترى بها القبة، وكنت أنقل إليها كل الأخبار إلى أن حانت الساعة. ولقد زاد تعاظم شره قوتها، مع أن قدراته كانت أقوى منها. ساعدتها للدخول إلى مقصورة وتتحدث مع الملكة لكي تعدان الخطة لقتل الملك هي التي اقترحت أشرك رئيس السماسرة بالأمر فهي تعلم سلطتهم في هذه القبة، ولا شيء يمشي دون إرادتهم ودون إطلاعهم. لقد عهدت إليها القضاء عليه في مقابل إنقاذنا من تلك الحفرة. أعطيتها الخاتم، ومهدت لها أمر قتل الملك، إذ إنني على الرغم من قواي كنت ضعيفًا أمام طلاسمه، فلم يكن لي أن أقترب منه بنفسي، وما كنت أستطيع الإجهاز عليه.

صرخ كنان:

- أخيرًا سوف أعود إلى وطني. سوف أعود إلى جدتي العزيزة، إلى أعمامي. كم اشتاق إليهم؟ لا يهم الآن، سوف أخلق لنفسي عالمًا جديدًا صحيحًا. لقد نشأت في مستنقع الفساد، وعدم الرحمة، ولكن ما دام الإنسان منا يتنفس لديه فرصة للنهوض من جديد، وتنقية نفسه من الشرور من جديد.

فقال فارس:

- طبيعة الإنسان يا كنان نورانية تتطلع دائمًا إلى السماء، فهي مصدر السعادة لها. أما الإنسان الذي يتعفر بالذنوب تجده غير سعيد، يبحث عن النورانية في كل مكان، فبعضهم يصيب فيرى بقلبه، وهذا الصحيح. أنت رأيت يا كنان الحقيقة بقلبك، وعفا الله عما سلف.

في جهة أخرى من الغواصة، كان صالح أو المستشار سابقًا يردد:

- إنه عالم مخيف قذر.

كان يرددها حتى وهو نائم، كانت كوابيسه تطارده. العالم مخيف. كيف سأعيش؟ مع من؟ ولمن؟ فكل من أهتم به، قد مات، أو غرق، أو خدعنا، وقتل. وصل به التفكير إلى حد أنه فقد القدرة على النطق، وأصبح ساهم البصر، ولم يعد يريد حتى الطعام، وفي يوم كانت الممرضة تتنزه في الحديقة، التفت إليها، وقال:

- هل لي بالقليل من الطعام.

سعدت عندما تحدث وقالت بسعادة حقيقية:

- لقد تكلمت. أنت بخير الآن.
- نعم، أحمد الله.
- وماذا تريد من طعام؟ سوف أعده بنفسي.
- أي شيء ساخن أرجوك، فأنا أتضور جوعًا.
- لك ما تريد، فأنا أعد طبق اللحم بالخضار على نحو لا يتقنه أحد غيري. مهلًا، سوف أعود به على الفور.

تركته لتحضر ما طلبه، ففكت وثاقه، وتركته طليقًا. وأسرعت لإحضار ما أراد، وعندما غابت تمامًا عن نظره، تسلل إلى سطح السفينة، نظر نظرة أخيرة إلى البحر، ورمى نفسه في أحضان أمواجه المتلاطمة.

النهـــــــايـــــة